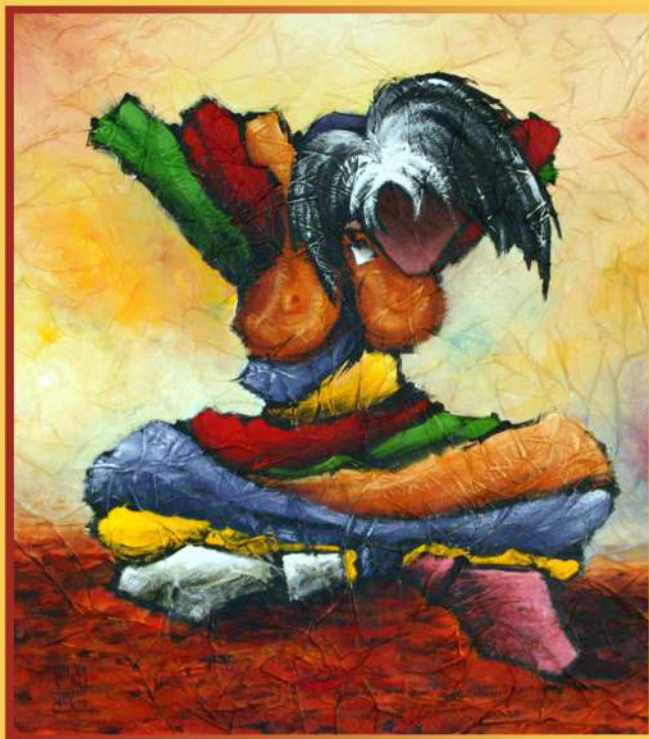


# البفل الذي ابتلع القمر



عبد الرحمان الوادي

قصص قصيرة

عبد الرحمان الوادي

# البغل الذي ابتلع القصر

قصص قصيرة

عنوان الكتاب: البغل الذي ابتلع القمر (قصص قصيرة)  
لوحة الغلاف: للفنان التشكيلي محمد تايرت  
المؤلف: عبد الرحمان الوادي  
الطبعة الأولى: دجنبر 2020  
جميع الحقوق محفوظة للمؤلف  
الإيداع القانوني: 2020MO4863  
ردمك: 2-591-32-9920-978  
مطبعة ورافة بلال - فاس / المغرب  
الهاتف / الفاكس: 05.35.61.86.03  
الواتساب: 06.14.23.37.57 / المحمول: 06.61.68.70.55  
العنوان: رقم 204 شارع المدينة المنورة حي الأمل / النرجس - فاس

الحمد لله

صهري أحمد شهري

حين يحكي



## البيت

ها نحنُ قد وصلنا بعدما بلغ ممّا المسيرُ مبلغنا.  
لو كان لغوُك المصابُ بنوبيةٍ حادثةٍ من الإسهال  
قدماً تسعى، لكننا قطعنا المسافة في وقتٍ أقلّ بكثير  
مما فعلنا.

أنظر حيثُ تنظرُ سبابتي، هل رأيتَ البناء  
القائم بمفرده أعلى التلّة، وسط هذا الملكوتِ المالكِ  
مجمعِ النّواصي والأفئدة؟

إنه البيتُ الذي كنتُ دائماً أحدثك عنه، وكنتَ  
دائماً تحملُ كلامي محملُ الهزل والمحال. لم تصدق  
مرةً واحدةً أنه بدون بابٍ ولا جدران.

ها هو أمامك مباشرةً الآن. هل ترى له عماداً أو  
سقفاً؟

إياكَ أن تقولَ إنك لا تراه. إذا لم تكن تراه،  
فاعلم علم الموقنين القاطعين رؤوس الريبة كلما  
أينعت أنك أعمى.

أجل أعمى. أقولُها، وأختمُ عليها بخاتم السماء.  
أنت واحدٌ من العميان، حتى وهاتان العينان  
الفارغتان لا تتوقفان عن الدوران داخل متاهة  
رأسك التي لا تنتهي.

هي إذن رحلتك الأولى خارج الذات بعد أن  
أهملتها؛ جراء مكوثك الطويل في نفس المكان. تركتها  
تترهل وتتكوّر كويراتٍ تطير مثل فقاعاتٍ من الهواء  
في الهواء، ثم لا تلبثُ أن تنفجر وتتلاشى.

ما حاجةُ حذائك بك إذن؟

هيا تقدّم حافياً، عارياً، كاشفاً ما في غور  
مغاورك، واسلكِ الممرَّ عبر الجسر المعلق بأسباب  
الهباء. ليس لك منفذٌ سواه إلى حيثُ الملجأ والمقصد.  
عندما تطأُ موطنه، ستجد نفسك أمام أمرين  
اثنين لا ثالث لهما؛ إما أن يدعك تجتازُ عتبهته إلى  
جوف عترته، وإما أن يرفضك، فيقذفَ بك قذفاً  
خارجة، ويطوّح بك إلى الأسفل مثل الهباء. ستقبُع في

الفراغ هناك إلى أن تأكلك آكلات الجيف التي  
ستخرجُ مع خروج النهار من قبعة الليل.

كنتُ أعلمُ منذ بداية الخلق في شرنقة الشرق  
أنك مجردُ خواءٍ من خواء، ولم أشأ أن أُطلعك على  
باطني إلى أن تُبصر بعين الحقِّ والحقيقة.

هل ستلقى ربَّك بعد حينٍ بهذا الشكل؟  
شكلك المعكوسُ على صفحة مرآته شكلُ قفلٍ  
أضاع مفتاحه وذاكرته داخله.

يا حسرةً كيف، وأين، ومتى!





## مملكة الزيزفون

ما الذي جاء بي إلى هذا المكان الغريب، وأرغمني  
على دخوله؟

قبل ولوجي المحتوم إليه بقرارٍ مختوم لم يتسنَّ  
لي الاطلاعُ عليه، تركتُ رأسي خارجاً في تجويفه دوحهٍ  
يتيمةٍ، ووضعتُ مكانه لغماً قابلاً للإنفجار في أيِّ  
لحظةٍ، تحت أدنى ضغط متعمد من الرهط.

لم يكن سواها في هذا المدى الموحش المترامي  
حدَّ الضجر، بعدد الحصى والحجر.

بقيتُ وحدها، وأبقتُ على شموخها القديم.

لقد هربت جميعُ الأشجار التي كانت حولها إلى  
الغابة البعيدة، وأخذت تتطلَّعُ بتوجُّسٍ كبيرٍ هناك

في الأفق البئيس، متلحفةً بأوراقها الذاهلة والآيلة  
للقنوط، في انتظار قدوم الربيع.. الربيع الحقيقي  
ليعلن نهاية موسم العراء دون عزاء.

من عاداتهم المتوارثة هنا أن يدوسوا بأقدامهم  
الهييمية على هامة كل قادم جديد. هذا ما حكته لي  
الوجوه المدهوسة التي قابلتني في طريقي، ولم أكد أن  
أتبين ملامحها بوضوح. ولم أستطع أن أسأل أحداً  
من أصحابها بعضاً من تلكم الأسئلة المعتادة في مثل  
هاته الحالة، التي من شأنها أن تدلّ يدي التائهة على  
أولى الخيوط، وتلطّف الجوّ بيني وبين غول المجهول  
الجاحظ أمامي، والفاغريّ فاهُ الذي لا قعر يُرجى له.  
إنهم يمرون سراعاً، فرادى لا زرافاتٍ ولا مثني  
حتى، وهم يطرقون بأبصارهم المحظورة.

الويلُ ثم الويلُ لمن يرفعُ عينيه، أو يلتفتُ إلى  
أحد جانبيه.

للمكان مدخلٌ فريدٌ، هو نفسه مخرجه  
الوحيد، وسرديبٌ سريةٌ تحت الأرض، جاهزةٌ

لتأمين فرار القطط السمينة في حالة ما إذا حدث  
وثارت عليها الجرذان، رغم أنه احتمالٌ غيرٌ محتمل.  
لا أعرفُ من هو الكائنُ الذي أطلعني على هذا  
السِّرِّ المكنون. لعلَّها الريحُ المتقلبةُ المزاج؛ التي لا  
يستقرُّ حالُّها على حالٍ.

أكادُ أجزمُ بهذا، دون أيِّ إزعاجٍ لصمِّ العقل  
الباطن.

دلفتُ بخطي ثابتة، فيما ما يكفي ويزيدُ من  
الحيطة والحذر، نحو الباب المشرع على كل  
الاحتمالات السيئة. تنتصبُ على عتبه بعجرفةٍ  
مبالغ فيها مخلوقاتٌ عدميةٌ لا تشبهي في شيء. في  
كامل صفاقتها؛ ترتدي آخر صيحات الفوضى  
العالمية.

ما هذا الصمُّ الجنائزيُّ الذي يُطبقُ على  
الأنفاس، معلناً خلوق قلب العالم من أيِّ إحساس؟  
وحدهُ الدَّبابُ يستطيعُ تكسيرَ جداره العازب؛  
لهذا تراه يحومُ مزهواً، في غفلةٍ من المصائد، بطينه

المخلِّ بحياءِ العذارى من الأنعام. كم يحلو له أن  
يزعج الحالمين منذ ساعاتِ الصباحِ الأولى. يعزفُ  
دائماً مقطوعته التي لا يعرف غيرها؛ مقطوعة  
الإزعاج على مقام الحجاز.

حاولتُ جاهداً أن أتمثّل شكلَ ذبابةٍ في قَمّةِ  
سعادتها، لكن دون جدوى لم أفلح في ذلك.  
ما دامت السعادةُ توجد أيضاً في قاموس  
الطينين، لا حاجةَ لي بها بعد الآن.

أنا الموقعُ أسفلَ سافلين؛

الراوي سليلُ إمبراطوريةِ الحكيمِ الأبدية،  
أشهدُ بكاملِ قوايِ السردية أنني أتنازلُ عن  
نصبي منها مهما كان كثيراً أو يسيراً، إن حدث وكان  
لي طبعاً، قبل أن أختفيَ قسراً في الداخل، وقد لا  
يُكتبُ لي الرجوعُ منه يوماً سالماً.

لا تنتظروني.

وداعاً.

الشخصُ الذي كان يقف رُغم أنفه الأفتس  
مترقباً دوره قبلي في الطابور الدليل، ها هو الهالكُ  
اللحظة ملقئاً تحت أظلافهم وحوافرهم المستشاة  
غضباً بركانياً، يعجنونه عجنأ. لقد غفلت طاعته  
العمياء قليلاً، جرأ انتظاره طويلاً، وأفلتت آهاً  
واحدةً لا غيرَ من قبضتها المنهكة، فانهالوا عليه بوابلٍ  
من الرّفس، والرّكل، والصفع، واللّكم، واللّطم،  
والشّتم، والبصق، إلى أن أصبح حفنةً من التراب  
تدروها الرياح.

ممنوعُ التكلّم مع السّارق منعاً كلياً

هكذا تكشّر اللّوحة الكبيرةُ المثبتة في عليائها  
بغلظةٍ وفضاظةٍ فجّتين.

غضبهم الآن في أوجّه. لقد انتفخت أوداجهم  
حدّ الانفجار، والشّررُ المارقُ يكادُ يتطاير من  
خزراتهم الثاقبة، بل قُل قد تطاير وأحرق الأخضر  
وجميع الألوان. أما أنا، فقد جاء دوري.

مدّ الأحذبُ بينهم مِقْمَعَهُ في اتجاهي، ليجرّني من  
قفايَ إلى وسطهم كما تُجرُّ الدّوابُّ، لكنّني تفاديتُه  
بخفّةِ ضوءِ الفجرِ الهاربِ، فنزعتُه حركتُه الفاشلةُ  
بقوّةِ إلى الخلفِ، وقذفت به أبعد من رجائي؛ ما  
جعله يهوي على ظهره، ويعوي وهو يدورُ على حدبته  
مثل حُذروفٍ ممسوخٍ، فيما ظلّت رجلاه القصيرتان  
المكتنزتان تتأرجحان في الهواءِ بشكلٍ مثيرٍ للسّخريةِ.  
تعالت القهقهاتُ فوق الموكبِ الجنائزي الذي  
كان يمرُّ بمقربةٍ من هذا المشهدِ غير المألوفِ. وهناك  
من أقسم مؤكداً صدورَ ضحكٍ هستيريٍّ من داخلِ  
الخشبةِ.

لقد صدّقته، بل كنتُ أوّلَ من صدّقه بين نفرٍ  
قليل جداً.

أحبُّ دائماً أن أنتهيَ إليك أيها القليلُ الجليلِ.  
نزل الأمرُ الذي لا يرد، من أعلى الجبلِ المشرفِ  
على المكانِ، بحشر المشييعين أحياءً في حفرةِ الهالكِ.

هجم عليّ الجمعُ هجوم الفرد، وتحلّق حولي  
دون أن يترك لي منفذاً في حلقته. هاجت الصدورُ  
وماجت، ثم راحت تفورُ وتمورُ؛ معلنةً عن قرب  
انفجارها العظيم. لكنّها خمدت فجأةً حين أشار  
أحدُهم بسبّابةٍ مرعوبةٍ إلى صاحب الجلالة والمهابة  
لُغمي المتربع على عرش قنّتي.

جاء رُهم الأعمى وسط زوبعةٍ من الغبار  
العنيف، فورَ علمه بما حدث وأحدث. حين  
انقشعت وانقشعوا بنفخةٍ واحدةٍ من إعصاريّ  
المستعجلِ إنهاءِ القضيةِ العصيّةِ، ظهر جثياً من  
تحتها دون أن يجثو من هول ما رأى. لم يكن هناك  
فرقٌ كبيرٌ بينه وبين دابّته وحيدِ القرن.

أسرّ غيظَه الذي كاد أن يُفسد بيضَه، وأصرّ  
على دعوتي إلى احتساء كأسٍ صهباءٍ معتّقةٍ،  
والجلوسِ إلى مائدة الحوار لمناقشة المسألة بكل ما  
تستوجبُ من تعقُّلٍ وحكمةٍ، برحاب صرحه غيرِ



المصرح به هناك بالقمة. لكن صمتي أفحم  
عجمته.

لا أحب الأشياء التي تدور حول نفسها، أفضل  
دائماً حسم الأمور في عباتها.

خاطبته بنبرة أمرّة؛ قلت له عليه أن يختار في  
الحال، ولا داعي لمزيدٍ من لغو المقال، بين نهايته  
الحتمية وبين بداية تنظيف المكان من قذارته؛ التي  
تبرأت القذارّة نفسها منها.

فُتح في الباب ألف بابٍ وبابٍ بلا عسسٍ أمام  
خيوط الشمس، ونبتت رؤوسٌ كثيرةٌ على الشجرة  
العظيمة، وعادت الأشجارُ تسابقُ الأشجارَ من  
ملجاها القصي.

## لهبس الظلال

باغتتها أنامله المستعرة؛ وكأنها سفاويد خرجت  
للتو من رحم التنور، فصرخت صرخةً كتمتها في  
أوجها، وخطفت يدها البضة التي كادت أن تقلب  
مشروها، وهي تُقلّب نظرها المشدوة في أرجاء المقهى  
الفارغ إلا من بعض الزبائن المنسكبين في قعور  
هواتفهم.

إبتسم بمكر في وجهها الذي ضجّ سهباهُ  
بشقائق النعمان في عزّ الخريف، بعد أن كبح جماح  
يده بأختها، وقال لها العبارة عينها التي تردّها  
الضواري على مسامع الطرائد:

- أستاذ باحث...

همس ظلُّه إلى ظلِّها:

- عن متعة عابرة.

التفت إلى ظلِّه القابع وسط بقعة الشمس  
المتسللة بفتور عبر زجاج الشرفة المطلة على الشارع  
الرئيس؛ الذي تتمنطق به المدينة الهائمة على وجهها  
العابس، وغمزه قائلاً:

- واحدةً أخرى تؤكد أن النساء جمعٌ بصيغة  
المفرد.

فيما هي أوحى لها ظلُّها هاتفاً في سمع روعها:

- يجب أن تضعي حداً لهذا العبث الذي لا  
ينتهي.

أخبرته عبر هاتفٍ مجهولٍ أن عاداتها لم تعد منذ  
ثلاثة شهور. ساد صمتٌ خطير. فكر هو في الإجهاض.  
فكرت هي في الحمض النووي، فهزم الوجود العدم  
هذه المرة شرَّ هزيمة، رغم أنه قوي الشكيمة، أو بهذا  
يتظاهر لا أقل ولا أكثر.

## العرس! ولماذا العرس؟

شاء هو التستر والكتمان. شاءت هي التشهير والإعلان، وكان لها ما شاءت. رفعوه على العمارية، وطوفوه العالم شرقاً وغرباً. ألبسوه مختلف الأزياء بما فيها زيُّ الهنود الحمر، وجعلوه يصرخ مثلهم، ويرقص رقصتهم حول خيبته المشدودة بإحكام إلى عمود الهوان، إلى أن أيقظ الفجر من سباته، وأصاب منه العياء الشديدُ آخر قلاعهِ المتهاوية.

عندما آن أوأنُ الاختلاء بعروسه، أو بالأحرى نيل ولو قسطٍ يسيرٍ من النوم والراحة، وجد الغرفة مستعمرةً. همّ بالخروج ظناً منه أنه أخطأ في التقدير، لكنها استوقفته، فنظر إليها مستفهماً ومستغرباً. ضحكت باديء الأمر باصطناع مكشوفٍ كي تخفف عنه توتره المتوتر، ثم طفقت تقدم له جمهور الحاضرات من الخالات، والعمات، والأخوات الشقيقات، والأخوات من الرضاة، والصدقات الحميمات...

قاطعها، وأوماً لها برأسه، كما تفعل دابةُ الأرض  
وسط جحافل البعوض، بأنه قد وعى وفهم أنه لم  
يتزوجها وحدها، وإنما تزوجهن جميعهن ابتداءً من  
هذه الليلة اللعينة.

هنا قطع شكه بيقينها، وعلم أن التعدد في هذا  
البلد لا تعاني منه النساء، بل أشباه الرجال، وإنه  
لصغيرهم الذي علمهم كيفية الخشوع في صلاة  
الخنوع.

حين وضعت له الأنثى الخامسة، قرر أن يضع  
هداً لرحلة بحثه عن وارث سره المفضوح.

في الفضاء الخارجي لمطعم الوجبات السريعة،  
رأى صدفةً شيخاً نزقاً يمد كفه المرتعش ليفترس يد  
بنته الوسطى الجالسة قبالتة. تخطفها خطفاً،  
فَتُطَوِّحُ بكوبها أرضاً وتكسره؛ محدثاً صوتاً جارحاً  
أسره في نفسه المنهزمة، وتابع طريق خسارته نحو  
الميناء، حيث سينتظر وصول باخرته الأخيرة؛ التي  
ستقله إلى الجحيم.

## الغبار

بوحشيةٍ همجيةٍ هتك الديناميتُ عرض  
العروس المصونة، بمباركةٍ من ذويه المهلّلين فرحةً  
بهذا الفتح العظيم، فتعالت صرخاتها الحرى سحابةً  
كثيفةً من الغبار الأشهل إلى عنان السّماء، وهي ترى  
بكارتها تناسبُ بين فخديها دماءً بنيةً مصفرةً، لم  
تنقشع إلا بعد فترةٍ عن شبحٍ منتصبٍ على الهضبة  
المقابلة، يتابع المشهد من بعيدٍ بعيني صقرٍ غائرتين؛  
لا تكادان تظهران فوق لثامه الذي يوارى سوءة  
وجهه، لكن لسان حاله صادقٌ يُفصح عن سرّه  
للسائلين كونه شخصاً غريباً عن المنطقة؛ شأن  
غالبية العمّال الذين تناسلوا إلى هذا المنجم الجديد  
رجالاً وركباناً، من كل عوزٍ وفاقّةٍ، رغم أنّ مجيئه كان

لأداء مهمته الخاصة المنوطة به كلما خاصم الصفاء  
الهواء، وليس لذات السبب.

تقدّم الغريب بخطىً وثيدةً في اتجاهي، وهو  
يجولُ بناظره عبر أرجاء التتوءات الصّخرية  
البييسة التي يضحُّ بها المكان، زاد من حدّة بؤسها  
تناثر مآوٍ من الشّعر والقشّ بشكلٍ متنافرٍ هنا  
وهناك. لم يخفف منها نصبُ بعض الظّلل المزركشة  
بالوانٍ زاهيةٍ، أخفى تحتها نسوةً، ورجالاً، وأطفالاً  
قدوداً من الشّمع؛ خشية أن تذيبها سورةُ شمس أب.  
غير أنّ ما شدّ انتباهه أكثرُ مرورٍ عربيّةٍ خشبيةٍ  
متهاكّةٍ بمقربةٍ منه، ينوءُ أمامها بغلٌّ عبوسٌ، سلّم  
رأسه إلى عجوز شمطاء تقناده إلى حيث تشاء. ألصق  
الخلجُ خلفها ثلاث كواعبٍ بكوميةٍ من الأثاث  
الشاهد على بداية الخليقة.

الوضعُ يشي بوجود صيدٍ وفيرٍ كلّ ليلة. إنه جدُّ  
مغرٍ بإقامة أول ماخور.

إبتداءً من الليلة، ستشعر تلك القدور التي تغلي  
فوق نارٍ كبيرةٍ في وشم أولى السّطور على سجلّ هذه  
الأجسام الصغيرة.

وأيّ سطور هي؟

لا قدرة حتى لماء النار على مسح الآثار.

حين تسمّر أمامي، تعانقت عيني وعينه،  
فعرفني وعرفته. لم يكن سواي. أنا الكائنُ الترابي، أنا  
ليكوز الأعجمي، القادمُ من خلف البحار إلى كلّ  
غبار. أجوبُ عواصم الفقر والحاجة. لا يقرّ لي قرار.  
وحدهم المعدمون يعرفونني، وينادونني حتى في غيبيتي  
بـ (سي) التي يعني تشديدها (السيد) في لسان هذا  
البلد. طبعاً ليس إجلالاً واحتراماً لي، وإنما خوفاً من  
بطشي المنتشي. أقرأ هذا في عيونهم الوجلى دائماً.  
فالعيونُ أوثقُ وثائق المشاعر على الإطلاق.

دلفتُ بخفةٍ خلف الغبّدار إلى داخل السرداب  
الحالك، أقتفي خطواته المتعثرة وسط بقعة الضوء  
الساقطة أمامه من قنديله الكربوني. عارٍ تماماً إلا



من تَبَّانه المهلهل. ولكن ما حاجته به هو الآخر وقد  
نزل إلى هذا الحضيض، وصار من فصيلة الدّواب،  
تحت أقدام أولئك الذين أطلقوا العنان لقبهاتهم  
وَالْعَاهِمِ النَّارِيَةِ، بعد أن دارت الكؤوسُ بالرؤوسِ؟

توالت ضرباتُ فأسه القويّة تستنطق صمت  
الصّخور لعصور، وتعالّت زفراتُه فردّد صداها  
الفراعُ باعوجاجٍ كما لو كان يسخرُ منه، وعجنت  
حبّاتُ عرقه المتساقطة حبيبات الغبار المتطايرة  
لتشكل منها قناعاً لزجاً صيّر وجهه أكثر بؤساً.  
وناصرت رائحة الرطوبة المقيتة نتانته في طردني إلى  
الخارج شرّاً ما يكون الطّرد في أقصى حد.

حينما صعد من الظلام إلى الظلام، تمطّى  
وأطلق زفيراً حاراً عميقاً، تلاشى رماده بسرعة في  
هبات الليل القارس. لقد أخلف المطر مواعده هاته  
السنة. هذا ما تؤكده قطرات السماء المتفرقة  
والمحتشمة؛ التي تموت فور سقوطها، وتتكوّر في  
التراب العالق بجسمه.

لاحت له في الأفق البعيد نقطة ضوء ساطعة،  
لم تكن في اعتقاده القاطع غير ابتسامة حبيبته  
رَقَّوش؛ التي يجدها في مثل هذا اليوم أكثر فتنة وبهاء.  
إنه موعد تجدد الحبّ بينهما هذا الشهر للمرة  
الثانية؛ كما هو الحال في كلّ شهر منذ أن زلّت به  
قدماه على حافة عشقها، وسقط في واديه السحيق  
لما يقارب الثلاثة أعوام الآن.

سرت بداخله سعادةٌ عارمةٌ وهو يتحسّس بيده  
اليمنى موضع صرته المشدودة بإحكام الحزام تحت  
سرتة؛ ليطمئن على سلامة أجرته نصف الشهرية.  
الليلة خمراً وزيادةً في العمر.

لم يعد يفصله عن مدخل الحانة غيرُ فرسخ  
واحد، يزيد أو ينقص قليلاً. باغته دوازٌ شديدٌ،  
وطوّح به مثل خيط من الدخان في كل اتجاه قبل أن  
ي طرحه أرضاً. حاول الوقوف لكن هيمت. أراد الحبو،  
لم تسعفه أطرافه الخائفة.

رائحة الأديم التي تسربت إلى جوف أنفه الممرغ  
في التراب ليست غريبة عنه. إنه مسجى على الفدان  
الذي كان عفاف أهله وكفافهم، وأصبح بين عشية  
وضحاها في بطن الغول، بعدما التهمه ضمن ما التهم  
من فدادين شاسعة في محيطه.

عاودته ذكرى أول أجرة تسلّمها في عمره  
الشقي، وسلّمته حياً إلى رَقّوش، مع أنها أقلّ جمالاً  
من الأخريات اللواتي يتسابق سادة المنجم وعبيدُه  
سواه في مضمار حسنهن الأسر لمجامع الأفئدة،  
مغربَ شمس كل يوم من الأيام الحمر.

ما إن تخطى عتبة الحانة إلى الداخل حتى وجد  
نفسه مجروراً بوثق أهدابها نحو مخفر غرامها  
الجلاد. ذاق فيه منذئذٍ كل أصناف التعذيب  
والتنكيل، ولم يغادره قطُّ حتى وهو منبوذٌ في العراء  
الآن.

مخفرٌ لا حدود تحده، ولا يجري عليه الزمانُ  
ولا المكانُ.

كلما فارق حضن خمرته، طرد من ذهنه  
وسوسة الاقتران بها بقران الشرع والحلال، مخافة  
أن يتسلل إلى دفء فراشه الطائفون حول كعبتها أثناء  
الليل وأطراف النهار، فور إلقائه في غيابات الغار.

هل تفي العاهرةُ بوعودها؟

وهل للعاهرة وعودٌ حتى تفي بها؟

مبدأ العاهرة هاك هات، أو هات هاك؛ حسب  
الحال وصاحبه.

لماذا لم تسأل عنه إلى حد اليوم، وهو لا يكف  
عن إطلاق اسمها مع زفراته؟

لماذا لم تأت لعيادته في مطرحه؟

لماذا لم يسبقها قلبها إليه قبل يدها ولو لهاته  
المرّة فحسب؟

قد تُذهب لمستُها على جبينه المحموم كلّ ما به،  
حتى بعد أن أعلنت سُحنته الأبقراطية نزعه الأخير.

فيم يختلف عنها طبيبُ الموقع؛ الذي أدار ظهره  
لأبقراط، ونكث عهده؟

في عزِّ غفوته تحت تأثير المسكنات الفموية  
والشرجية، تنهى إلى سمعه هديرُ العجلات  
الحديدية على السكة التي تم إحداثها بمحاذاة البيت  
الذي يستأجر خمّاً على سطحه، هجره دجاجُه إلى  
العالم الآخر بفعل داء غامض.

تمنى لو كان حاضراً بين رفاقه في هذا اليوم  
العظيم، ليشهد معهم نهاية العصر الهائبي، وبداية  
عصر جديد.

تمنى لو تسعفه قواه - ولو لهاته المرة فقط -  
على جرّ ثقل جسمه المريض خارج فراشه إلى غاية  
السور القصير؛ ليتطلع من فوقه، ويرى شكل  
المخلوق الرحيم الذي سيكفي من الآن فصاعداً  
سواعد العمال المنهكة شرّاً دفع العربات المقيتة  
لمسافاتٍ طويلةٍ لا تكاد تنتهي.

عقد العزم على أن يتحدى ضعفه القاهر كيلا يفوّت عليه فرصة مشاهدة الحدث التاريخي؛ الذي قد لا يمهله الموت المترصُّ بساحته؛ فيمنحه شوطاً إضافياً إلى أن يحظى بحضوره مرة أخرى غداً أو بعد غد.

قام بصعوبة جمّة، وحرص على ألا تصدر عنه أنة ألم واحدة. أخذ يتوكأ على كل ما يجد أمامه إلى أن وقع بصره المكسورُ على القطار الذي انبعث مزمجرأً ومتسربلاً في عباته السوداء، وسحقه بعد أن خانته جسده العليل، وسقط أسفل قاطرته.

وقف سي ليكوز على ما تبقى من الغيدار،  
يذرف دموعاً ترابية، سالت حممها على خدي.  
هكذا حدثني جدّي.



## العرائس المنكرة

غيمةٌ ممتدةُ الأجنحة تحجب طفلَ الشفق،  
عجلى تلتهم السماء التهاماً، معلنةً بداية موسم  
الهجرة إلى السؤال. يتابع أنثاهُ خلالها بنظراتٍ  
يخالط فيها الحنينُ الحنين.

لماذا لم تشأِ المكوث معه على رأس هذا البرج،  
بدل تلك الرحلات المكوكية التي لا تكاد تنتهي؟  
لماذا لم توافقه قراره الإبقاء على ثلاثتهما دون  
تفقيص؟

قطعاً هو يدرك أنها باكورةُ حبهما البكر، ولكن  
وضعها على العرائس كان أجدى وأولى من كل شيء  
ذي قيمة مقيمة. كان لا بد من تنكيرها لوقف تكالب



الأوغاد من كل البلاد عليها؛ لاغتصابها أمام أعينها  
الباقيات بما بقي لها من دموع.

يا لغيرة الإناث! ثورة إعصار دون سابق إنذار،  
يجرف كل ما يوجد في محيطه؛ حتى الرقيق  
والسحيق من الأحاسيس.

يا لقسوتها! لم تحدجه حتى بنظرة ملامة؛ من  
شأنها مواربةً الباب على أي احتمال، لا إقفاله تماماً  
في وجهه كما هو الحال الآن.

كان عليها فقط أن تتجلد بالنزر القليل من  
الصبر، فتنظر مثله قدوم من يصون شرفها التلبد  
إلى الأبد. عندها، يمكنهما العودة إلى برجه الأول  
بالقدس القديمة، ولم لا، إذا شاءت هذه المرة  
وقبلت، سيسعد أيما سعادة بأخذها إلى قصرهاكو  
روجو؛ الذي أعده له عفاريت اليابان بإحدى جزرها؛  
إكراماً له منها دون غيره من أبناء وبنات جنسه.

أما الآن، فهو الحارس الذي لا تغفو عينه  
عليها، ولا يعير لتعاقب العقارب أدنى اهتمام، منذ

أن امتدت يده سافلةً تحت جناح الظلام إلى صدرها  
البض القاهر للغض، فانترعت منه ساعته  
النفيسة؛ التي ظلت لسنوات عديدات تتدلى عليه،  
وتزيده بهاءً ورونقاً.

شأن صديقه جان جينيه هناك في الأسفل؛  
الذي يردد دائماً على مسامعه الجواب عينه، حين  
يسأله عن طبيعة الأحوال عنده بأن الأمور ليست  
على ما يرام، ما دامت تلكم الياء الساقطة تجر  
إسراء؛ الدرّة العصماء غصباً نحو ما خور اللام...

بعدما طوتها المسافات بعيداً، وتوارت خلف  
العتاب، يُشبح ببصره المنكسر ناحية نهر اللوكوس  
المنهمر بدماء الملوك؛ علّه يمدّه بشيءٍ من القوة، حين  
يقرع سمعه صهيلُ الجياد وهي تسك بسنابكها  
واحدةً من كبريات ملاحمها الخالدة على صفحته  
الحمراء القانية.

ثم يُشِيحه جهة المحيط، فيشده لأول مرة  
مشهد ارتعاشة الأنامل المزروقة بين ثنايا الخصلات  
الذهبية، المتراقصة على أوتار الشمس الأولى.  
يُلقي برأسه الثقيل إلى الخلف، صاكاً فكّي  
منقاره بكل ما أوتي من لقلقة، تُشرع جفون المارة على  
دهشةٍ كبيرةٍ مستفهمة:

- هل يُعقل أن يبقى الصوتُ ملءَ المكان، رغم  
اختفاء صاحبه منذ ربح من الزمان؟

## المغ.. شوب

لا يمرّ يومٌ دون اعتصام. لا يهمه أن يعرف هوية  
المحتجين، ولا ماهية مطالبهم. جميعهم واحدٌ لديه،  
لثامٌ، مزعجون، أبناء سفاح.  
عمله هو حفظُ النظام بقبضته البلاستيكية  
القوية.

فور إعطاء الأمر بتفريق شملهم ستفرقهم  
عصاهُ أشتاتاً أشتاتاً؛ وكأنه كليم الله موسى، يأمره  
ربّه أن يشقّ بحر الرؤوس العصية في كلّ حين.  
التخمةُ الزائدةُ هي سببُ الفوضى العارمة التي  
تكسر سكون البلاد وهدوءها. لا يوجد أخطر ولا  
أخبثُ من المعدة في جوف الإنسان. إنها بيتُ كافّة

المصائب. حين تمتليء إلى أن تطفح لا توحى لصاحبها  
إلا بالقبيح من الأفعال.

لو كان قُدِّر له أن يصبح طبيباً جراحاً في قلب  
العاصمة، تطبق شهرته الآفاق. تَفِدُ إليه وفودُ  
المرضى كلَّ علَّةٍ مستعصيةٍ من المدائن، والمداشر  
المجاورة والغابرة، لكان أول إنجازٍ يقوم به هو بترها  
نهائياً، ووصلُ المريء بالمصران الغليظ مباشرةً.

عندها ستعلن الأذواق عبر الأبواق نهاية عصر  
المعدة، وبداية عهد البلعوم، وسينتهي معه طولُ  
مكوته ليلَ نهَارٍ في مقعده داخل هذا القفص  
الحديدي القابع في مكانه لا يفارقه منذ بداية  
المظاهرات، قبل ما ينيف عن ثلاثة شهور في عز قر  
خريفي جاف؛ حتى التصقت العجلاتُ بالأرض، ولم  
يعد يشعر بأطرافه، لقد تخدّرت تماماً.

كم يحنُّ إلى لعبة الورق في المعسكر، وشرب  
اللِّفافة بعقب أختها، وسماع آخر التّكت للقهقهة  
حدّ الضُّرّاط، ثم الخلود إلى سباتٍ شتويٍّ طويلٍ.

الغلالةُ السَّميكةُ التي حجبت مرأى النافذة  
جرّاء تصاعد بخار الأنفاس الهائجة والمائجة  
بالداخل حالت دون تبيّنه الوجوه بوضوح، رغم  
تفرّسه المفترس. لا يرى عبرها غير الأفواه الفاغرة  
تصدح وتقدح، والأيدي المتشجّجة تعلو وتنزل. تبعث  
في ذاكرته بشريط ذلك الفجر الذي داهمه فيه  
حشدٌ غفيرٌ وهو مكشوف العورة خلف أحدث أُتُن  
القرية؛ كما لو كانت أعشق عشيقاته التي تمنّعت  
عليه لسنواتٍ عديداتٍ خلت، فأشبعوه شتماً ولكمأً  
وركلاً.

أعظم جروحه طابت وأخفت السنون تحتمها  
ندوبها، وذهبت بها دون رجعةٍ إلى حيثُ لا يدري، ما  
عدا سبة ولد الحرام؛ مازالت أظافرها وأنيابها تنهش  
داخله دون أدنى رحمة.

لا تهمّه الوجوهُ بقدر ما تهمّه الألوان، على  
أساسها يميّز طريدته. يركضُ خلفها كالضبع الأرقط،  
ويهوي بعصاهُ بكلّ غلّة لتمديد رجليه وذراعيه

المتجمّدة، حتى يسري الدّمُ فيها منساباً نشيطاً من جديد.

يوم انقشعت غشاوته، بدأ يفتّش عن نفسه في كلّ ناحيةٍ وحين، إلى أن أخبروه أنهم عثروا عليه داخل قماطه الملقى بمطرح القمامة، القائم زاوية الرّفاق المدلهم على مدار الفاقة، قبل أن تشتغل رادارات القطط والكلاب الضالة بوقتٍ قصيرٍ جداً. ليت الذين صادفوه تأخروا قليلاً؛ هكذا ظلّ يتمنى.

حتى أعتى المخبرين في الدهاليز الخلفية لا يعلم نطفة من يكون، ومن ظلمة أيّ رحم سقط سهواً. في الشوارع كما في المراكز، اكتشف جسده الصّغير العبث بشتّى عابثيه، قبل أن يخرج به ذلك الإيرلندي على الفرنسيين، والناس أجمعين. حين جاء الأمر المطاع، وفتحت الأبواب، انطلق فوراً لا يلوي على شيء، وأخذ يهوي بكلّ ما أوتي من

حنقٍ على أوّل رأسٍ وجدها أمامه، وهو يرفعُ عقيرته  
إلى سدرة المنتهى:

- هي التي راودتني عن نفسي..

شَلَّتْ قبضاتٌ كثيرةٌ هيجانَ أمواجه، لينتبه إلى  
أنّ القبعة المتآكلَ لوئها التي هشَّمت وما تقي هي لقائده.  
أول مرةٍ تختلط عليه الألوانُ بعد ما يزيد على اثني  
عشر عاماً من عمر هذه العصا في يده.

لا يتصور حياةً أخرى بدونها، حتى وهو منعزل  
في جناح المحكوم عليهم بالإعدام.





## طائرتي الخاصة

إسمحوا لي اليوم أن أقدم لكم جميعاً الاعتذار  
الكامل الموجود في دنيا الأخطاء، الذي تستحقّون  
طوعاً وكرهاً، فرادى وجماعات؛ كلّ واحدٍ باسمه  
الكريم.

كم كنتُ أسخر من غبائكم كلما سمعتكم  
تتحدثون عن الحبِّ بحماسة العرب الزائدة،  
وتقولون بأنفسٍ جدّ متصاعدة تكاد تخنقكم بأنه  
صاحبُ معجزاتٍ وكراماتٍ عديدةٍ، بعدما علمتُ أنه  
حقاً وليٌّ من أولياء الله الصالحين؛ الذين تنتصب  
قببُ أضرحتهم الفطر على طول البلد وعرضها.

شَيْلاه\* أ الحب، لقد جعلتني أطيّر لأول مرة،  
وأحيا في الجوّ مثل العصفور سويعاتٍ معدوداتٍ،

بعد ما ينيف عن خمسة عقود دبّت من عمري على  
الأرض فحسب.

سوف أردّ لك جميلك يا قطب الأقطاب؛  
سأحتّ منتخبينا على تقديم سؤال كتابي، إذا ما  
أعوزهم طرحه شفويّاً إلى معالي وزير الأوقاف ليوقف  
لك قبتك الخاصة، ولتكن في قلب العاصمة الآتمة  
مكان تلك القبة الملعونة.

أراكم مستعجلين لتعرفوا سبب رحلتي  
المفاجئة هذه، ووجهتها، وماذا حدث فيها. إطمئنوا  
تماماً لن أدع عيونكم تجحظ أكثر من هذا، حالاً  
سأتي عليها دفعةً واحدة، وبدون أيّ فاصلٍ إشهاري.  
وصلتُ إلى المطار بعد أن سلّمتني منحدراتٌ إلى  
منعرجاتٍ، وعقباتٌ إلى منحرفاتٍ. المسافرون  
يركضون في كلّ اتجاه، تجري حقائبهم مرغمةً خلفهم  
تحت ثقل أشياءهم.

في محطات السفر، العجلةُ هي السيدة الأبدية؛  
لا مكان هنا للتريث والتمهل. الجميع يريد التخلص

من المكان القديم وما يتبعه بأقصى سرعة ممكنة. لا بد لي أن أسرع كي أدرك موعد صعود الطائرة، وإلا سوف لن تترك لي سوى الضباب أحملق فيه. أخذت أركض أنا أيضاً، وبصري مثبت على اللوحات الإلكترونية المعلقة على طول الممر. لكن الطابور الحلزوني الممتد أمام مكتب استقبال حدّ البصر بالكاد يتململ. مدّ إلي رجل أمن كفه البيضاء قائلاً:

- جواز السفر من فضلك سيدي

قدمتُ له المجلة التي لم تفارق يدي منذ الصباح. تصفحها وابتسم، ثم أشار إلى مكتب ثانٍ فارغ يظهر في أقصى المكان، وطلب مني التوجه إليه. أخذتُ مكاني بمحاذاة الكوة الصغيرة، وأرختُ العنان كاملاً على الغارب أحدقُ في البياض؛ لدرجة أنني لم أشعر بمن شغل المقعد جوارِي، ولم أسمع نداءات المضيفة بوضع أجهزة السلامة.

فتحتُ المجلة لأطلع على الإعلان من جديد. مؤكِّدٌ أنّ هذه هي صورتها، ما دام اسمُها مكتوباً

أسفلها بالبنت العريض. إنها أولُ فرصةٍ تُتاح لي  
لأعرف شكلها. حدسي لم يخَيّ كما فعل اعتقادي.  
كلماتها الرقيقة كانت تشي لي دوماً بأن روحها حبة  
نبق كبيرة سقطت من سدرة المنتهى.

لأكثر من عقدين وساعي البريد يسعى بيننا؛  
يحمل إليّ نصوصها، ويعيدها إلها وحواشيَّ تحضنُها  
برفقٍ كبير؛ كما لو كانت من بلورٍ شفيفٍ سريع  
الانكسار.

متى أقلعت الطائرة؟

لا أعلم، ما أعلمه أنها تسبح الآن في خضمِّ هائجٍ  
رغم سكونه الظاهر، وأستعجلها أن تحطَّ قبل أن  
تلتهم المسافة ما بقي في قِدي.

خففتُ مسرعاً إلى مكان الحفل. تطلعتُ من  
خلف المتحلّقين حولها، فوجدتها منمكةً توقّع  
باكورتها لهذا ولتلك. وما إن سمعتُ باسي وأنا أضع  
نسختي منها أمامها، حتى رفعت إليّ ما أنزل الفردوس  
الأعلى إلى الدرك الأسفل من جحيمي.

تجمّد الكتابُ في يدي شأنَ القلم بين أناملها،  
وجميعُ من حضر تسمّر، وكان من الشاهدين على  
أنّي ركبْتُ طائرةً غير الطائِرة.

---

\*كلمة عامية تستعمل في سياق التبرك بالأولياء.



## كازازا

ما إن قاءني قطارُ الصباح الباكر فيمن قاء،  
بعد عسر هضمٍ شديدٍ، توجّعت السكّةُ تحته طوال  
الليل، وتأوّهت لحاله المثير للشفقة؛ الذي يقطع  
القلب إرباً إرباً، ورشّ رذاذُ البحر المنعشُ دواري  
البور؛ منبهاً إيايَ إلى أن قدمي على الأرض أخيراً، حتى  
تمثل أمامي الرجلُ هيهئته البئيسة، وهو يذرع السوق  
الأسبوعي بعلب سجائر من الصنف الرخيص تحت  
شمسٍ تتفرعن في عز الصيف على جميع من يدبّ  
متسللاً تحتها وسط البلد، دافعاً بالحروف المتمنّعة  
والعائمة في بركة عرقه إلى الخارج بأكثر من طاقته:

كازا.. زاء.. زاء



كان كلامه يعانى من حُبسةٍ قديمةٍ قِدَمَهُ.  
سامح الله القابلة، غفلت عنه قليلاً إلى أن سقط  
رأسُه فعلاً، وارتطم بما بقي شاهداً على وجود حصير  
ذات زمنٍ ليس بالقصير، ولم ينعم بالبكاء كما يفعل  
المواليدُ عادةً. لقد كتمها في نفسه، وسكت المكانُ  
المسكينُ لسكوته.

ما كل هاته الجلبة والفجر ما زال يفرك غبشه؟  
حين أخبرتُ الشيخ الذي كان يشاركني نفس  
المقصورة بأنها مرّتي الأولى، أقسم بثدي المرحومة أمه  
إنه لن يزور عاصمة اللصوص أبداً حتى وإن كان فيها  
الرجاء. وتمنى لو لم يكن يمر بها هذا الخط الذي  
يوصله إلى مدينته الصغيرة الهادئة الوديعة.

لم أتبيّن بعدُ الوجوه بوضوح، وتملّكني  
إحساسٌ بأنّ في كل واحدٍ من هؤلاء الذين يهرولون  
حولي يتخفّى لصٌ متوثّبٌ؛ يترصدّ أول طريدةٍ لينقضّ  
عليها، قبل أن يكشف النهار الستار عن حقيقته.

تعاقبت عليّ سياراتٌ عقب سياراتي، ولكن فور  
إطلاع السائق على وجهتي، يُشيع بوجهه العبوس  
عني، ويدير محركها المغمغم كغمغمته بسرعة،  
فتغمرني سحابة دخانه الكثيفة. ثم فجأةً جمّدت  
مكابحُ سيارة مهترئة تلويحات يدي المرهقة، فبادرتُ  
سائقها الكهل:

- العبارة

- العبارة؟ لعلك تقصد العمارة

- خذني إليها مهما تكن، على الأقل أريح رجليّ  
التي كلّسها وقوفُ ثلاث ساعات كاملة، وأبتعد  
عن هذا المكان المشؤوم.

بعد أن رتق بي شوارع وفتق أخرى، توقف أمام  
عمارة زجاجية شاهقة. علمتُ فيما بعد أنها كانت  
على مرمى بصري فحسب.

على الجانب الأيسر من مدخلها بالكاد تظهر  
لوحةٌ طينية متآكلة، قرأتُ بصعوبة فيها: العمارة.

أكيدُ أن الزمن بمباركةٍ من الإهمال واللامبالاة عبث  
بالباء، فصيرها ميماً. هنا، علمتُ لماذا يجهل القومُ  
اسمها القديم.

بين الفينة والأخرى، يلجها أو يغادرها أشخاصٌ  
يعتمرون نفس القبعة. لا يلتفتون حولهم إلا  
لاختلاس النظر إلى مؤخرة أنثى عابرة.

يوجد مكتب الاستقبال بالطابق الأرضي،  
تجلس خلفه شابة، لأقل إنها جميلةٌ من باب اللطف  
ليس إلا، لم يحالفها الحظ في إخفاء تصنّع بشاشتها،  
وأول ما تفوهت به سؤاها الوجودي:

- هل لديك...؟

- بكل تأكيد

- أرني إياه لو سمحت

- لا يمكن!

- بدأنا في التحرش

- مستحيل!

- هل أنت في الحزب؟

- طبعاً

- لا تقل لي ليس معك بطاقة العضوية أيضاً

- متى كان الانتماء إلى الحزب...؟

- ليس ذلك أعني، إنما أقصد الحزب الحزب

- في أيّ طابقٍ تقطن الكلمة؟

لم تجد في العبارات المسكوكة التي تلوك مع  
عُلكها المنهك أمام كل قادمٍ جديدٍ ما تردّ به عليّ،  
فأخذتُ أصرخ في اليهو ثم في الخارج، وأنا أمسح  
البناية من أعلاها إلى أسفلها بغضب عارم كاد أن  
يقذف ببؤبؤي خارج محجريهما:

- أيها اللصوص.. أيها اللصوص..



## يوم رقصت الحافلة

- خمس دقائق فقط وتنطلق الحافلة

خرجت العبارة والتذكرة من كوة الشِّبَّاك  
الزجاجي، فدسستُ التذكرة بإحكام في جيبي، فيما  
تركت الريح تفعل بالعبارة ما يحلو لها في مهبط الأخرق  
يومها؛ هي الأولى بمشيلاتها المخادعات؛ التي كم حظي  
وما زال يحظى معظمها بالخاتم الرسمي.

إنزويثُ في ركن غير بعيد، يقضمني الوقت في  
صمتٍ وعلى مهلٍ، وسط مرج المحطة وهرجها، إلى أن  
حضرت الحافلة المنتظرة. تهافت القومُ في سيلين  
عارمين نحوها، متدافعين بالمناكب والشتائم. لا فرق  
بين ذكر وأنثى، ولا أبيض ولا أسود، ولا أكبر ولا

أصغر إلا بثقل الإقدام، وخفة الأقدام. في حين،  
ظللتُ أنا متنسكاً في زاويتي؛ ليقيني أن أحد المقاعد  
الأمامية سيكون من نصيبي مقابل دريهماتٍ  
معدوداتٍ.

تم رفع قطعة الجريدة الحاجزة للمكان الشاعر  
بجانبي؛ لتجلس شابةٌ خالصة البياض، رشيقة  
القوام، خفيفة الحركة، موزعةً ابتسامتها الأسرة  
على كل العيون المتطلعة، تزيد من سحرها حبنا  
الجمال المحفورتان بلطف شديد في ربوتي خديها،  
وشفتا كرزها ترددان بصوت جدّ خافتٍ أغنية  
طروبة داخل سماعتها.

بعد أن دخن السائق ذو الشارب التركيّ  
سيجارتته، واحتسى قهوته، وتناوب على الممر  
الفاصل بين الكراسي البائعون بمختلف البضائع،  
والشحاذون بمختلف العاهات، دارت العجلات.

- علق بصرك هناك بأقصى نقطة في الأفق حتى  
لا يصيبك الدوار.

هكذا كان يحثني المرحوم أبي ومنعرجات  
الأطلس تميد ببرعي ميداً. لقد صارت عادتي في  
المستوي من الطرقات أيضاً، مع التحافي بالصمت  
طوال السفر. أجل قبل أن تسألوني حتى وهذه  
الظبية الشاردة بمحاذاتي. إسخرؤا مني كما تشاؤون.  
لن أحفل بكم. ما قيمة سخرياتكم البلهاء أمام ثقتي  
الكبيرة بنفسي؟ بمقدوري الآن أن أجعل السائق  
يرفع حالاً مكبر الصوت بإحدى الأغاني الشعبية  
المحبة إليه دون غالبية الركاب؛ لكي تخلع سماعها،  
وتبدأ هي الحديث، مادةً لي يدها المادلين بقولها  
المرئي:

- ريم

لا تنزعجوا كفي حينئذٍ أسرع من فمي. تطلق  
ضحكةً أخالها شدو الهزار أتى مبشراً بحلول الربيع  
قبل أوانه، حين أخبرها بأني كنت متيقناً أن ذلك هو  
اسمها. وتزيد دهشتها أكثر حين أطلعها على اسمي  
وطبيعة عملي. فتأخذها إلى أن تحكي لي دون أن تعي



حكايتها التي حركت بركة حياتها قبل بضعة أيام لا  
غير.

أول ما رنّ جرس الدخول، حتى خففتُ مسرعةً  
إلى الطاولة الأولى؛ التي أحرص منذ مدةٍ على الجلوس  
عليها في مادة الرياضيات خاصة. نعم هو مثلك في  
الاسم، لكن غيرك في مادة التدريس. ليته كان شبهك  
حتى في هذه.

حين لمحتّه مخترقاً جمع آخر الزملاء الملتحقين،  
ارتعشت يداي من جراء رجّات قلبي، واشتعلت  
وجنتاي، رغم برودة الطقس ذلك الصباح الشتوي.  
وما كاد يدخل إلى القسم ويستقر به الحال خلف  
مكتبه، حتى جحظت عيناه، وصرخ في رعبنا الجاثم  
على أنفاسنا:

- هيّا تخلصوا من كل ما يخصكم هنا أسفل  
السبورة.

لم تستطع الهمهماتُ ولا الغمغماتُ التي ندّت  
هنا وهناك أن ترد هذا القدر المستطير؛ فما فتئتُ

أن همدت واستكانت مستسلمةً له. لا أحد كان يعلم  
غيري موعديّ الآتي مع امتحانٍ ثانٍ أكثر مباغتةً من  
هذا، وأكثر تمنعاً عن كل القواعد الجبرية  
والهندسية.

لا أريد منه شيئاً، أريده فحسب أن يمنح يدي  
لحظة لتطلع يده على ما يختلج بسويداء فؤادي،  
ويعقد لساني العاجز عن البوح به. هي كفيلاً منه  
بذلك ولو لمرةٍ واحدةٍ فقط.

أعلم أنه ربّ عائلة، ولكن فيم سيفرق هذا معي  
ولا خيار آخر أمامي؟

زادت نبضاتي، إلى أن سرى تيارها الحاد في كل  
جوارحي، مما جعل أرجل طاولتي تصطك بقوةٍ بأديم  
الأرض، فخرجت هاربةً من نظرات السؤال الذي  
يعوزه الجواب، وبدأت أرقص في الساحة، على إيقاع  
موسيقى رائعةٍ تعزفها أناملُ المطر الساحرة..

تقوم. تخترق الصفين راقصةً. يلحق بها جميع  
الركاب حتى المسنون والمرضى منهم. تعتري العدوى

شارب السائق الكثيف أولاً، ومنكبيه العريضين  
ثانياً، فبطنّه نصف الدائرية، ثم رجليه المكتنزتين  
اللتين تزجان به في جذبة لا متناهية. هنا، تجد  
الحافلة الفرصة مواتيةً لتهتز وتتلوى مثل أفعى حُزت  
رأسها، إلى أن تلفظنا جميعاً خارج جوفها. كلٌّ في  
جانب يترنج. وحدها ريم تُحكّم قبضتها على كفي  
بشدة.

أرايتم كيف باستطاعتي أن أحدث كل هذا،  
ولكن بالله عليكم دعوني في حالي، فهو حسبي. أعرف  
أنكم ستهزأون بي ثانية؛ لكوني تركتها بمحض إرادتي  
تختفي بين الناس فور وصولنا، وقد لا أراها أبداً مرة  
أخرى.

نعم أقرّ الآن، وأنا في كامل قواي السردية، أنكم  
على صواب، وأني مجانِبٌ له، تَبّاً لي. ولكن إذا شئتم،  
يمكن لي أن أعيد عليكم الحكاية تماماً كما تحبّون  
وترضون هذه المرة.

ها.. ما قولكم؟

## الذبيحة السرّية

قال الراوي الطاعنُ في السرد، وهو يتابع خيوط  
الدخان المتصاعد من غليون حكيه:

ظهرت البراري تحت نور القمر في كامل زينتها  
الربيعية، من خلال فتحات الخيمة القائمة أعلى  
التلة المطلة على الأهلة، مرددةً بأمانةٍ صوتَ الشيخة  
الشجي:

دارتها وقدت بها الهجالة

حيث ما بقاوا فيكم رجالة

تسمّر القومُ ينظر بعضهم إلى بعض نظرة غير  
المصدق لما سمع، فيما أنا لم أشعر متى انتصبتُ  
واقفاً، تاركاً ورائي قنيناتي تصطك فيما بينها وكأنها

تصفق وحدها للقول الفصل وسط هذا الجمود غير  
المعهود، وتوجهتُ نحوها مترنحاً وملوحاً بالورقة  
الخضراء في الهواء، ووشحتُ بها صدرها الممتليء  
بمشاعر الثورة والغضب، ثم همستُ في أذنها  
الشمال بالسؤال:

- أش هـ الحبة الزائدة أحادة؟

ردت بعد أن أدت دورها في الحساب:

- أنا لي عارفة علاش أعلال.

بعد أن أخطأته لمحاولتين أو ثلاث، سحبتُ  
بطاقة تعريفي من مكانها الأنسب لها بجيب سروالي  
الخلفي؛ لأتأكد إن كان هذا هو اسمي الشخصي  
المكتوب عليها. لا أعرف من يكون علال هذا، ربما  
تقصد الشيخ علال العلوي. ولكن ليس هو الذي ظل  
الليل كله ينحر آلتة نحرأ، وتأبى مع ذلك أن تموت.  
لماذا تتشبث بأسباب الحياة إلى هاته الدرجة؟

شبتكُ ذراعِيَّ حول شلالها المنساب بلطفٍ على  
كاهلها المكشوف، وملتُ بنظري المخطوف إلى  
الأسفل؛ عند موضع التحام فمِ حذائي وفمِ شربيلها.  
أخذتُ أتمايل طرباً إلى أن جلدت خصري يدُ لعينةٌ لا  
أعرف لمن تكون؛ لعلها يدُ الفراغ.

تركتُها وانصرفت، وإذا بعجوزٍ زادتها وُشومُها  
المترهلةُ قبحاً إلى قبحها، تقطع طريقي بعكازها الذي  
يشبهها كثيراً: كما لو كانا من نفس الجذع المطروح  
على جانب الطريق الذي لم يعد يسلكه سالك.  
بالكاد يتطايرُ شرُّ غضبها من عينيها الخامدتين مثل  
عيني سرديننة متعفنة، تخلص منها البحر ذات جزر  
بعد مد. أثار صنيعُها المتصابي موجةً من الضحكات  
المكتومة والمتفرقة هنا وهناك، جعلتني أصحو قليلاً  
من سكرتي، فأنتبهَ إلى أنني كنتُ أقصد مجلس  
النساء.

قلتُ في قرارة نفسي المنشرحة على الآخر:

- لو كانت لي سمائي، وكنتُ فيها رباً، لجعلتُ  
عمر المرأة قصيراً؛ كيلا تعجزَ فتنغصَ على  
العالم حياته انتقاماً لشبابها الغابر الذي لن  
يعود أبداً.

عدتُ إلى مجلسي وما زال الجو كما تركتُه  
مكفهاً في سماء الرجال. برقُ راعدٌ أخذ يزمجرُ ويندُرُ  
باقتراب عاصفة هوجاء في الأفق، ولكنه كاذبٌ جبانٌ.  
صحيحٌ، إنني أتفهم وضعيتهم الوضيعة، ولكن  
لا شيء على الإطلاق يُلزمني بأن أعلن تضامني معهم.  
أكره ما أكره اللزوم وما يلزم.

إنه لأمرٌ في غاية الخطورة أن يُفسد أحدهم  
مهما كان على الباخوسيين المتشددين نشوتهم وهم  
في أوجها، حتى وإن دعت الضرورة. قد يصلُ حدّ  
القتل وسفك الدماء دون عناء.

ليست هناك مضاضةٌ أشد على المرء من أن  
تُهيئه امرأةٌ على مرأى ومسمع حشد من الشيوخ،  
والشباب، وبعض الرضع الذين جعلتهم قسوةً

المشهد يُمسكون عن مصمصة حلّات أمهاتهم إلى  
حين انتهائه.

نفض الراوي غليونه مما علق بقعره من بقايا  
سردٍ عديم، وحشاهُ بأخر جديد، ثم تابع طريقه  
خلف حكايته مسترسلاً:

طلبتُ من حادة أن تُعيد ذلك المقطع المبتدع؛  
الذي قطع الخيمة إلى شطرين غير متساويين. كان  
شطر الإناث كبيراً، رغم صغره وقلتهن.

هجمت عليّ لاءاتُ الذكور البكماء هجوماً  
الضباع الجياع؛ بين المؤنبة لي، وبين المستنكرة فعلي.  
صحّتُ فيهم أن المرأة لم تفعل شيئاً سوى أنها أرتنا  
وجوهنا الممسوخة في المرأة. تلكم حقيقتنا المرة التي  
نتعمد دائماً أن نُفلتها من بين أيدينا، حتى لا نقبض  
على جمرتها الملهبة، كلما عكست قسماتنا المتوارية  
خلف أقنعتنا. كم مرة في اليوم نطالع أغلفتنا قسراً  
في المرايا التي توجد حولنا في كل مرأى، حتى وإن  
حدث صدفةً ودون قصد.



هذا سببُ إضرابي العام عن فكرة الزواج. لا  
أريد أن أخلف نسلًا بغلاً من رحم خيبي.  
قاموا جميعاً، واختفوا في جوف الليل، ولم أعد  
أسمع منهم سوى صدى همهماتهم وغمغماتهم غير  
المبينة.  
بقيتُ وحدي، بل بقي معي سؤالي يعتصرني عن  
هوية علال.

هل هو صاحب فاس؟

لا أعتقد.

هل هو ابنُ عبد الله؟

من المحتمل.

أيمكن أن يكون الذي يُنسب إليه البقر؟

ليس كل علال علالها. لا بد لي إذن أن أعرف

قصته منها.

من بعيدٍ لمحتُ الشيخَ يمدد آلتَه المنهكة في

سريها الخشبي القديم برفقٍ وحنانٍ؛ لكي ترتاح من

تعب الليلة الليلاء. دنوتُ منه وسألته أين يمكنني أن  
أجد حادة. أخبرني أنها تأخرت أكثر من اللازم. لقد  
خرجت لتقضي حاجتها في الخلاء منذ مدة ولم تعد  
لحد الآن. قلتُ له لا داعي لأن يقدم نفسه قريباً  
للساوس، قد يكون هامٍ بها أحدُ الراضين الخروج  
من الجنة، رغم إفسادي لها. لم يُلق بالاً إلى كلامي،  
ووضع رأسه المثقل على رأس الحقيبة، ونام نومة  
الذي لا ينتظر قدوم الصباح.

ترقيتُ أوتيتها إلى مطلع الفجر دون جدوى،  
فخرجتُ أبحثُ عنها بين حقول الجوار. جاءني صوتُ  
أمر أجش، لم أتبين صاحبه في غشاوة الغبش:

- عُد سالمًا من حيث أتيت.

ظلمتُ لسنواتٍ أقتفي أثرها الذي التهمه  
الظلام، ولا أحد من معارفها رآها بعد تلك الليلة  
المشهودة.

هل تعرضت لعملية اختفاء قسري؟

وإذا حدث وكان، هل للأمر علاقةً بالشخص  
المجهول المسى علال؟

ثبّت الراوي نظره على عنكبوتٍ قبيح المنظر  
يتأرجح في الفراغ. تنحنح وعدّل قليلاً من قرفصته،  
ثم قال:

حين استعادني بعضٌ من وعيي، وجدتُ  
جسديّ المدلّي من السقف قد أضحى ورماً مقيحاً.  
تساءلتُ أيّ نوع من الحيوانات الضارية هذا الذي  
فعل بي ما فعل.

إنبعث نفسُ الصوت الخشن من إحدى الزوايا  
الملتحفة بالسواد الحالك، خلف الضوء المتسلط  
على رؤيتي:

- قبرك أيها اللقيط سيكون هنا إذا لم تعترف.

- أعترفُ بماذا؟

- لعبتُك مكشوفة.

- أنا لا ألعبُ أبداً.

- لماذا تريدُ أن تعرف هوية علال؟

- متى صار البحثُ عن الذات جرماً يُعاقب

عليه؟

كتم الصوتُ صوتَه لحظةً كانت كافيةً، رغم قصرها، لتبدد ما تبقى من شكي الطويل. علال هو اسمي أنا إذن، فما حكاية الاسم الآخر الذي يحتل مكانه على صدر بطاقتي؟

---

الحبة: في الزجل مثل الشطر أو البيت في الشعر

الحساب: من أصعب أنواع الغناء الشعبي

علال العلوي: أحد شيوخ الغناء الشعبي المشهورين بمدينة أبي الجعد. كان ضريباً، توفي قبل سنوات قليلة.



## الحذاء الضامك

هو المكانُ نفسُه،

هي الساعةُ المبكرةُ ذاتها.

ينتصبُ رفيقاهُ التوأمُ أمامه ما إن يُسلم أحدَ  
جانبيه إلى الأرض، ورأسه الصغيرَ إلى حِجر المرأة؛  
التي أقرت له رائحُها منذ اليوم الأول أنها ليست أمه  
التي جاءت به إلى دنيا الشقاء، رغم أنه لم يحظ قط  
بدفء حضنها.

كعادتهما على مدار فصول السنة يشرعان في  
الضحك طيلة النهار، وهما يكشفان عن أسنانٍ  
حديديةٍ، تركت عليها سوسَةُ الزمان آثارها شاهدةً

على حلولها العايب بالمكان قبل مغادرته إلى وجهة أخرى.

وكعادته في كل مرة لا يستطيع مقاومة هذه العدوى اليومية، فينخرط معهما في النوبة الجديدة. على مَ يضحكان هكذا بهذا الشكل الهستيري؟ سؤالٌ لم يدر أبدأً بخلده، ولم يكلف نفسه عناء التفكير في سر تغاضي المرأة المستمر عن الجلبة الكبيرة التي يحدثون بقرها، ولا تثير حفيظتها، بل ولا حتى أدنى حركة منبهة من حاجبيها المتوثبين خلف نقاياها الأسود المتحلل.

ما يهيمها هي أن يكون المشهدُ مأساوياً إلى أقصى درجاته؛ تعرض مأساته مجموعَ المآسي الإنسانية التي شهدها تاريخُ المعدمين من الفقراء.

جنسُ المتسولين يؤكد بأن أصل النازيين قديمٌ جداً قَدَمِ النصب والاحتيال، مع اختلافٍ طفيفٍ لا يتعدى كون أولئك يوجهون راحة أيديهم إلى الأعلى،

في حين يجعلها هؤلاء إلى الأسفل، لكن الأذرع واحدة؛  
هي هي ممدودة إلى الأمام، في اتجاه جيوب المغفلين.  
في الغالب الأعم، لا يضحك اثنان متى قابل  
أحدهما الآخر سوى على سرٍ عظيم دفين يجمعهما.  
أکید هناك سرٌّ ما يشتركان معه فيه، يحرر ضحكاته  
البييسةً خارج قفصه الصدري من مطلع الشمس إلى  
مسطها.

تبأ لك أيتها الساقطة، ألهذا تطلعين؟

\*\*\*

هو المكانُ نفسه،

هي الساعةُ المبكرةُ ذاتها.

لكن لماذا حضر أحدُ رفيقيه فحسب هذا

الصباح، وتخلف الثاني؟

لم يفترقا يوماً. لأول مرة يصدر عنهما هذا

الفعلُ الغريبُ، منذ أن تعرف عليهما ليلة جاءت بهما

المرأةُ لتنهى شريط حفاة القصيرِ جداً، وتبدأ



مسلسلاً تشي أولى حلقاته بأنه سيكون جد طويلٍ إلى  
درجة الملل القاتل للرتابة ذاتها. تُصوّر جميعُ  
مشاهده خارج بيت أهله، أو بالأحرى ما تبقى منه  
ومنهم، بعد خروج والده من سجنه المؤبد محمولاً  
على الأكتاف المهذودة جثةً هامدةً، أياماً قليلةً قبل  
أن يضبط الضابط ذو الشارب الهيتليري اسمه  
المجهول على صدر آخر صفحة من كناش حالتهم  
المتدنية.

لماذا يقهقه هذا الأحمق كعاداته، ولا يحفل  
بالأمر؟

طوّق جيشٌ من الأسئلة فؤاد الفتى الصغير من  
كل جانبٍ بترسانته الثقيلة، فأبطل مفعول تلكم  
العدوى الموقوتة.

كيف له أن يضحك بعد الآن؟

وخزاتٌ شديدةٌ أخذت تفترس بشراسةٍ مقدمة  
قدمه اليسرى. دمٌ معفّرٌ تختّر مكان كبيرٍ أظافرها،

الذي لا شك يعلم أين ذهب الرفيقُ الثالثُ بهذا  
الشكل المريب.

هل سيَجبره الفراقُ الذي لا يطاقُ على العودة  
أدراجه بسرعة الحنين؟

\*\*\*

هي الساعة المبكرة ذاتها،  
لكن المكان غير المكان.

يخيم حزنٌ شديدٌ عليه هذا الصباح، عقب  
اختفاء رفيقه الثاني أيضاً منذ يومين. لا شك أنه  
ذهب يتعقب أثر توأمه باحثاً عنه، وقرر ألا يعود إلا  
وهو معه.

لأول مرة يشعر بكآبة محيطه في غياب  
ضحكهما الذي كان يضيء عليه جواً من المرح  
والسكينة، ولأول مرة يتطلع بلهفة إلى الأحذية التي  
تمر بجانبه، ويصيح السمع إلى أحاديثها؛ عساها  
تحمل إليه خبراً سعيداً عن صديقيه الحميمين.

غير أن يداً غريبة قتلت آخر أمل داخله، عندما وضعت أمامه صندلاً بلاستيكياً جديداً. إستبد به شعور بالكراهية نحوه، ما جعله ينهره ويركله بغضب، وينتصب واقفاً؛ حيث تراءت له لأول مرة في حياته رؤوس الناس على شاكلة نعالهم؛ لا اختلاف كبير بينها. من خلالها يمكن معرفة طبائع شخصياتهم.

المرة الوحيدة التي نظر فيها إلى الأعلى من قبل تعود إلى زمن قريب؛ إلى حفل ختان جماعي خيري رهيب، يوم شلوا حركته مكشوف العورة على ظهر قصعة باردة، أمام حجام أعور ذميم، تجاهل توسلاته، واستغفله بحيلة الفريخ القديمة.

صرخ باكياً حين رأى قلفته ممرغاً وسط بقعة الدم الساقط بين رجليه المفرجتين؛ لاعتقاده أن الطائر الصغير الذي لم يظهر له فوقها هو مندبوح، مفصول الرأس تحت.

يا لها من تذكرة للعبور إلى جزيرة الذكور!

لم يتأخر في شق طريقه، رغم صعوبته الجمة  
بين غابة كثيفة وملتفة من السيقان، وانطلق  
كالمسهم لا يلوي على شيء.

البحثُ المضي حافي القدمين، فارغ البطن  
لخمسة أيام متتالية بلياليها عن حذائه الضاحك  
المفقود كاد يفقده الأمل في العثور عليه، لولا وجود  
الصدفة الجميلة التي تلعب غالباً في أواخر الأوقات  
العصيبة دور المنتشل من السقوط رأساً في هوة  
الفضل السحيقة؛ التي يستحيل الصعود منها.

مر يسعى في زقاق ضيق بأقدم أحياء المدينة  
أمام دكان صغير، على وشك أن يخر سقفه الخشبي  
المتداعي على صاحبه الإسكافي الهرم، فيدفن جسمه  
العليل تحت خرابه. ورأى صدفة في قبضته المرتعشة  
بين سندانه ومطرقته الفردة اليمنى منه، وقد فرغ  
من إصلاحها. وعند اللحظة التي أراد فيها أن يضعها  
جانباً ليتناول أختها اليسرى، وقفت عليه شابة  
لطيفة، جاءت تسأل عن شبشما اللطيف. هنا،

إنتهز ضياع الشيخ الفاغر فاه في الملكوت الأعلى،  
وخطف حذائه دون أن يشعر به معاً، وفر هارباً  
بسرعة فائقة إلى أن ابتعد وتيقن ألا أحد يجري في  
أثره، فتوقف لاهثاً يفتق ما رتق الشيخ، ثم وضعه  
أرضاً، وتمدد إلى جانبه، وأخذ يضحك لضحكته.

## الصرخة الثالثة

ما إن سلّم الممرُّ الطويلُ آخرَ خطواتنا  
الضائعة إلى الجهو الفسيفسائي الصغير لمقر النقابة  
المتواري في زقاق ضيق بالحي القديم وسط  
العاصمة، حتى ارتسى علينا أحدهم فجأةً من حيثُ  
لا ندري، يضم ويُقبل دهشتنا بشدة. ثم انبرى يوزع  
ابتسماته، وأحضانَه، وقبلاته المصطنعة على من  
حضر قبلنا، مُرحباً بنا جميعاً ترحيباً زائداً عن  
الحاجة.

تبادلتُ أنا ورفيقي نفس النظراتِ المرتابة.

الكائناتُ الطفيليةُ المشكّلةُ من هاته العجينة  
اللازمة غيرُ مأمونة الجانب.

مجهول الأب هذا لا يعدو أن يكون سوى أنف مدسوس بين ثنايا المعتصم منذ يومه الأول. هو صديق الجميع لا يستثني أحداً، ليس في صالحه أن يقابل العداة بمثله. يتخفى خلف قناع لطفه ولباقتة؛ من أجل أن يكسب ثقة سائر أفراد المجموعة، ومن ثم يحصل على مفاتيح أقفالهم، مهما كانت عسيرة.

تلك هي مهمته القدره الموكولة إليه دائماً، وعليه أن ينجح فيها بكل الوسائل؛ حتى المهينة منها في أحيان كثيرة.

نظام فوضوي ظل يستمتع بإطالته عمر تحديقنا في الظلام، ولم يكن يفصلنا عن الشمس غير خطوات يسيرة، صارت حسيرة في آخر النفق الطويل، ثم سلط علينا عينه التي لا تنام.

ماذا كانت ستري يا ترى دون عرائنا المكشوف للضير قبل البصير؟

ما أتى بنا إلى باب ظلمه إلا حقنا الطبيعي في نورها المشاع.

أسفر الجمع العام التأسيسي عن إطلاق اسم مجموعة 153 على مجموعتنا؛ تمييزاً لها عن مجموعة 314 التي سبقتنا إلى الساحة زهاء ثلاث سنوات، ورفضت انضمامنا إليها. كما تم تشكيل لجان وظيفية، وتحديد مهامها لتباشر عملها انطلاقاً من صباح الغد.

لجنة الدعم: أوكلت لها مهمة البحث عن مختلف أنواع الدعم المادي والعيني؛ من أجل تغطية متطلبات العيش الضرورية بعيداً عن كنف الأهل والأسر.

لجنة التواصل والإعلام: مهمتها إسماع صوتنا لدى الهيئات الحزبية، والنقابية، والحقوقية، والإعلامية... وإقناعها بعدالة قضيتنا؛ طمعاً في حشد أكبر قدر ممكن من المناصرين والمؤازرين.



اللجنة الصحية: تسهر على صحة وسلامة كافة الأعضاء أثناء الوقفات الاحتجاجية خاصة.

لجنة التفاوض، وكنت مقررها: تطرق كل يوم ودون كلل أبواب الوزارات المعنية بالملف: الوزارة الأولى، الداخلية، الشغل، المالية، الوظيفة العمومية، وتترافع أمام المسؤولين حين يفتحون لها، وتجلس إليهم.

ثم كان علينا الإسراع للوهلة الأولى باستئصال ورم المركز/الهامش الخبيث من دماغ أبناء العدوتين؛ الذين حاولوا جاهدين السيطرة على جميع اللجان، غير أننا أفلحنا في إفشال خطتهم القديمة المتوارثة؛ ل حاجتنا إلى كل طاقتنا في معركتنا الخارجية الطويلة الأمد.

في كل مرة نسلك فيها طريقاً غير سالك، نعود أدراجنا بعزم أكبر على التصعيد في لهجة الخطاب؛ عساهُ يفتح لنا في الجدران الصماء باباً من الأبواب. ورغم حرصنا الشديد على ضرب طوق محكم من

التكتم على تاريخ الوقفة القادمة ومكانها، لا نعرف كيف يعرف بهما ابنُ الفجور، فنجد في انتظارنا قوات تكسير الفكوك وتكثير الشكوك، ملوحة بهراواتها في الهواء بعيون جاحظة متوعدة العظام بحرب ضروس تجهل معنى السلام.

ما دمنا نعدم الظهر الساند، لا خيار لنا سوى التقدم. إما العيش بعزة، أو الموت بشموخ كالنخل الباسق. نصرخ ونصرخ شطر القبة، كي نوقظ عمار بيتها الحرام من سباتهم العريق. لكن لا أحد فيهم يوقظ نومه في العسل؛ لأنه لم يدخلها من الصندوق. هذا ما أخبرنا به وقد صدق العمُّ برقوق.

لو كانوا حقاً حجوا إليها من الصناديق، لما اضطرونا إلى الحضور بأنفسنا إلى هنا لنشهد أعمارنا تضيع هباءً بين الكر والفر في زمن العهر.

لا أعلم ما الذي جعلني أتذكر في هاته اللحظة ذلك التلميذ الصغير الذي كنته في أول عهد لي بالمدرسة، يجلس بصحن بيتنا القديم بالحارة

العتيقة عصر كل يوم، وقد أحاط نفسه بأدواته  
المدرسية. يأخذ هذا الكتاب يُقلبه تارة، ويضع ذلك  
الكراس مكانه برفق كبير تارة أخرى، ولم يكن يكثرث  
باللهو كثيراً مع أتراهه في الخارج، بل كان يفضل  
اللعب في الداخل مع أصدقائه القادمين من وهاد  
ونجاد أرض بوكماخ.

لقد خاب اعتقاده خيبةً شائعةً؛ كان يعتقد أنه  
سيكتفي، مثل كثيرٍ من بني جنسه، بأن يصرخ فور  
نزوله إلى الدنيا، وعند إلقائه في غيابات القسم، فإذا  
به يجد نفسه ملزماً بإطلاق صرخة الثالثة، إن هو أراد  
شقاً ولو ضيقاً من العيش في هذا الطابق السفلي من  
العالم.

أمنيته الآن أن تكون الأخيرة، وألا تطول أكثر  
مما تستطيعه حباله الصوتية الضعيفة.  
الأطلس الحارسُ للموقع كيلا يقع يستنكرُ  
الأمر؛ ولا يرى أيّ داع لها.  
الصرخةُ الأولى رفضٌ لحياة الشقاء.

الصرخةُ الثانيةُ رفضٌ للأسوار حتى وإن كانت

نورانية.

الصرخةُ الثالثةُ رفضٌ للظلم والقهر.

- دبلومكم لا يناسب سوق الشغل.

- الآن فقط تقول هذا لنا؟

- إنتهى الكلام، عودوا من حيث أتيتم.

- هذا عبث.

- أنا أعبث أنا؟ وتجهرون به في حضرتي؟ خذوا.

- ما دعوى تعنيفنا؟ لا نريد سوى حقنا.

- هاكم ما تستحقون أيها الملاحين، اليوم

سأقضي عليكم.

معذرةً أيها السادة الأفاضل إن تجرأت  
واقتمحتُ عليكم حرمة مجلسكم دون سابق موعد،  
ولكن لا ريب ستغفرون لي صنيعي، ولربما تثنون  
عليه حالما تدركون أنني لم أفعل هذا إلا بدافع  
إشفاقي عليكم من هول السؤال عن صمت الراوي  
المفاجيء طيلة حكم البياض.

ليس من الشهامة في شيء أن ألتزم السكوت  
والقنوت وأنا الوحيد الذي أشاركه غرفة الإنعاش.  
سريري وسريره متلازمان هكذا مثل السبابة  
والوسطى. ليلة البارحة فقط، خرجت أنا من  
غيبوبتي، بينما هو ما زال تائماً في حلقة متاهتها، لم  
يظهر له بعد نور منفذها.

يبدو أن جمجمتي تحملت قوة التهشيم أكثر  
شيئاً ما من جمجمته. لقد هجمت علينا الوحوش  
الضارية، وأخذت ترفس الأجسام، وتضرب أمهات  
الرؤوس كما يضرب على طبله طبال واقع تحت  
سحر الإكراميات المتناثرة فوقه بسخاء الطائي.

سمعتة يهمس ملء بشاشته كونه وقف على  
حافة البحر، وأقبل حوت عظيم نحوه، حملة على  
متنه إلى الضفة الأخرى؛ حيث استقبلته جموع من  
الناس بالزغاريد والورود.

يا لفرط حسرتي! سيظل الندم يعتصر شقوتي.  
لولم أفق، لكنت صحبته الآن.



## البغل الذي ابتلع القمر

أخذ البغلُ ينهج ويضطرط تحت حملة الثقيل،  
والمسالكُ الوعرة، التي يُرغمه السياطُ السليطُ على  
تسلقها تسلقَ السحالي، لا تلوح لها نهايةٌ في الأفق  
القريب.

لو استطاع الصراخ بشكواه، لجعل السفوح  
الصماء تشفق على حاله البئيس؛ فترددَ على مسمع  
المدى وَكُوكَّتَهُ\* بأعلى ما تملكُ من صدى.

لقد سيق منذُ مطلع الفجر، ولن يبلغ المخيم  
المضروب فوق رأس الجبل إلا بعد نزول الظلام.  
ظلَّ القاهرَ الوحيدَ للعقبات الكأداء في هذا  
الصعيد، لكن ها هي الآن تنتقمُ منه شر انتقام.



إسترق نظرةً خاطفةً إلى الخلف ليرى شكل  
المخلوق الوضيع الذي ما زال يُلهبُ جانبيه بغلو  
فظيع.

ما كلُّ هذا القبح المقيح الذي يمشي وراءه؟  
هل في اعتقاده العليل أنه طائرٌ من الطيور،  
يريدُه أن يفرد جناحيه غير المرئيين ويطير؟  
لم يتعب أبداً طوال الطريق، ولم يشغله شيءٌ  
آخرُ عنه.

هذا الكائنُ على عكس باقي الكائنات يجدُ متعته  
الشبقية فقط في جلد الآخرين.

يستحق وبكل حقارةٍ أن يكون هنالك في  
الأسفل؛ في قعر ذلك الوادي السحيق.  
ركلةٌ واحدةٌ تفي بالغرض.

لحسن حظه ابن الكلب الأجرّب، وصل الركبُ  
أخيراً إلى القمة، وإلا لكان الآن مجرد هباءٍ منثورٍ من  
العظام المهشمة.

توقف بعد مسير يوم كامل، في عز قيظ أفرط  
هو الآخر في سحقه. العداء طبيعَةُ الأشياء.

هشّ برأسه، وحرّك جميع أطرافه المهدودة؛  
علّه يُلقي عنه تعبهُ الشديد، ويسترد قوته وطاقته.

بالكاد فتح شفّتيه الملتصقتين جراء يبأسهما  
الكالج، وأطلق زفيراً مدوياً صعّد من عمق قرارته.  
تشمّم هواء الليل البارد الذي حمل إلى خيشومه  
نسّامات رطبة منعشة. هنا عرف بطول خبرته في  
كنف هاته الأحجار أن الماء العذب الزلال رغم  
قسوتها ينساب رقراقاً من قلبها الرقيق بالجوار.

إنطلق يركض ركض الطلا غير مبالٍ بشيءٍ. وما  
هي إلا دقائق معدودات حتى تراءت له بين مفارج الأرز  
المادّ فاهُ إلى فم السماء بركةً حسناءً مثيرةً، ترقصُ  
بغنج ودلال على عزف القمر الأسر لسمفونيته  
الخالدة.

أرخی سيقانه للريح، وأخذ يحبّ ويقفز على  
الحواجز الصخرية. مال حمّله تحت بطنه، قبل أن

يسقط، وينفرط في كل جانب، حين انقطع الحبل  
المشدود حول وسطه.

إنه أمام الماء الآن؛ في حضرته المباركة، متخففاً  
من شقائه وتعاسته. سوف يعبه عباً، ويغتسلُ  
اغتسالاً في لجته الطاهرة؛ ليطفىء السعير المضطرم  
بداخله.

أقبل صاحبه في أثره يُرغي ويُزيد؛ ملوحاً بسياط  
الوعيد في الهواء. كارثةٌ عظيى حلت بساحته هذا  
اليوم المشؤوم دون سابق إنذار. بدل أن يأخذ أجره  
البسيط، سيطالبونه بدفع تعويض باهض عمّا  
تسببت فيه بهيمته الخرقاء من خسائر فادحة  
طلالت أمتعتهم وأغراضهم الثمينة.

حتى لو فرض جدلاً أنهم سيغضون طرفهم  
هاته المرة، ويتجاوزون عنه رافةً بمسكنته، كيف  
سيغضه هو عندما يرجعُ خاوي الوفاض إلى أهله  
الواقفين على باب السماء، والمترقبين عودته بما

يشعُ جوعهم؟ لن يصفحوا عنه أبداً، ولن يغفروا له  
مجيئه بهم إلى هامش الدنيا.

سحقاً لك أيتها الحيوانات المنوية، تحيين  
العبث في كل وقتٍ وحين.

إنطلق صوبه كالخنزير الهائج. ولما استدبره،  
وهمَّ بأن يصبَّ جامَّ غضبه عليه، صدّه بحافريه  
الخلفيين بكل ما استجمع من حنقٍ دفينٍ لسنين؛  
جعله يطيرُ بلا جناحين إلى الخلف فرسخاً وقيل  
فرسخين، ويهوي مثل مزود من هشيم. لم يعد يُسمع  
له نبسٌ ولا همسٌ. لن يكدر الوغدُ الحقيزُ صفوه بعد  
الآن.

طفت على الصفحة المتلألئة شفتان رقيقتان  
ناصعتا البياض، تفتزان عن ابتسامه لطيفة رائعة.  
لا شكَّ أنهما تباركان له شر ما فعل. أحسن في نفسه  
أنه لن يستطيع مقاومة إغرائهما القاهر له، ولما  
يقاومه؟ فعدمُ الاستطاعة محمودٌ في مثل هاتهِ

الحالة النادرة جداً؛ التي لا تتكرر إلا على رأس كل  
مائة رغبةٍ جموح.

تقدم ليطلع عليهما ما تيسر من القبلات كما  
يجبُ ويلزم. بيد أنه من فرط لوعته، شفطتهما  
بالوعته العجفاء شفطاً، فساد الظلام المدلهم فجأةً  
أرجاء المكان.

وقع المخيمُ الملتئمُ في حيص بيص على إثر  
الخشوف المباغت، وأخذ بعضهم يتعثرون في سؤال  
بعض.

كيف سيتدبرون أمر عيد ميلاد وليّ نعمتهم الآن  
في هذا الجوف الدامس؟

كيف سيبررون له أنهم تعمدوا عدم إحضار  
الشموع والمصابيح اليدوية؟

حتى إن أرادوا الرجوع على أعقابهم للإتيان بها  
في الحال، لن يفلحوا في ذلك أبداً؛ فأقرب نقطة  
مأهولة إليهم تبعدُ كثيراً جداً عن أملهم الفاقد لأدنى  
بصيص.

حفلةُ هذا العام تحت نور القمر في أعلى القمم  
تفتقت فكرتها العبقريّة في رأس داهيتهم، وسال  
لعابهم جميعاً لها. كان التاريخ سيكتبها بمداد الفخر  
والاعتزاز على صفحاته المجيدة، لولا حضور لولا  
اللعينة هكذا ودون دعوةٍ شرفية؛ لكي تحرمهم من  
أن ينعم عليهم بمزيد من رضا المولوي السامي،  
وتجعل عملياتِ ضربهم الأعداد في الأعداد تذهبُ  
سدىً.

تبّاً لها، سيلقون عليها القبض، ويحكمون عليها  
بالإعدام بتهمة تصفير الحساب.

زحف الجلاذ بصعوبةٍ جمّة، وهو يجر جسمه  
المسلوخ، الذي شكلت عليه الرضوضُ أبشع لوحاتها  
العبيثية. حين تيقن أن صوته المدغدغ سيبلغ  
مسامعهم الباحثة - على غرار عيونهم - عن أي منفذٍ  
للخلاص، شقّت صرخته المتكلّفة صدر الظلمة  
شطرين قائلاً بكل ثقة؛ وكأنه نبيٌّ جاءهم بوحيه  
المنتظر:

- البغلُ هو الذي ابتلع القمر.

صدقوه رغم أنهم كذبوه باديء الأمر. الفعلُ قائمٌ، لا بدّ لهم إذن من فاعلٍ غافلٍ يُحمّلونه تبعات ما حدث وأحدث.

كثر الهرجُ والمرجُ، وعلا الحرجُ وجهَ الحقيقة الضائعة.

لهذا الحد الذي بلغه تسويدي لبياضي، لا أحد يملكُ الدليل الدامغ الذي من شأنه أن يقطع الشك باليقين؛ فيثبت الكيفية التي تم بها تسريبُ الخبر، ما عدا الضمير المستتر الذي كان وراءه، ولكنه لا يحب الظهور بقدر حبه للمقابل. يستعينُ المسكينُ دائماً على قضاء حاجته بالكتمان؛ كيلا يفسد عليه خلوته بحبيبته الغنيمة فاسدٌ.

ليس في هذا أدنى ريبة، ولكن من هو؟

قد يكون المفردُ مثنيّاً أو جمعَ تكسير على أبعد تقدير.

من يعلم فيكفي السؤالَ شرَّ السؤالِ؟

تنازعت المنابرُ الإعلامية العالمية فيما بينها حق  
السبق الصحفي. واستضافت قنوائها الفضائية  
أكبر المحللين والمنجمين. ولم يتأخر الذبابُ كعادته  
في حشد طينينه المزعج حول هاته المائدة الدسمة.  
لغَطُّ في لغط أغرق الفهم الحاسم في مستنقعهِ  
العطن.

هل حقاً ابتلع البغلُ القمرَ؟

هل سيتم إعدامه دون محاكمة عادلة؟

وإذا تمت محاكمته ولو بشكل صوري، هل  
سيحاكم لوحده، أم سيحاكم أيضاً صاحبه، إن  
قدر له وعاش؟

إستفرد ثعلبُ الثعالب وليَّ النعمة الذي بلغ  
غضبه القمة، وأبى النزول منها، ووشوش في أذنه  
الشمال ما دام بغل البغال استطاع ابتلاع القمر،  
بمقدوره أن يهضم بسهولة ودون كلفة أي شيء يقدم  
له، حتى وإن كان خيط دخان.



لذا، من دواعي الكياسة في خدر السياسة أن  
يتفضل فوراً بإصدار عفوه السامي عليه أمام  
شاشات العالم، وعلى صفحاته الرسمية بمواقع  
التواصل الاجتماعي. سيرى إثرها كم سيملاً الخير  
العميم الزرع والضرع في منتجعات سويسرا.

أعظم بها من بشرى!

تبسم ولي النعمة، ونزل غضبه في الحال من  
القمة.

---

\* عبارة عن شكوى في اللسان العامي، وتكون بهذه الصيغة: والك والك  
أعباد الله، اللهم إن هذا منك.

## ذو الرأسين

داهم مخاضٌ عسيرٌ الأمَّ العازبةَ عند مدخل  
المستشفى والليل. ظلت هناك تتلوى وتصرخُ في وجه  
الظلام إلى أن مدت إليها السماء يدها الرقيقة  
وأدخلتها. حاولت وأعدت المحاولة تلو الأخرى، لكن  
قواها الخائرة خذلتها أثناء الطلق، فأسلمت روحها  
الصاغرة إلى بارئها، وتم فتحُ بطن الموت لإخراج  
الجنين حياً. زادت جمجمته بعض السنتمرات عن  
حجمها العادي لدى المواليد.

قطعت الممرضةُ حبله السري، ورفعته مقلوباً  
رأساً على عقب لتضربه على مؤخرته، لكنَّ هولَ  
دهشتها جمّد قفاها الأبيض في الهواء، حين لمحت

عينيه الجاحظتين تحملقان فيها من الأسفل،  
وتمسحان أركان الغرفة مسحاً.

قال الطبيبُ مازحاً، وفي بعض المزاح يكمنُ جدُّ  
الجدِّ أحياناً:

- هذا الذي قتل أمه أول ما خرج إلى الدنيا،  
ليس بعيداً أن يبید أمةً بكاملها. إنه مشروعٌ  
واشٍ كبير.

خُيل إلى المتطلعين من بعيد أن أدوات الجراحة  
تضحك هي أيضاً؛ جراء اهتزازها في قبضات  
المقهبهات والمقهبين، تحت نظرات المولود المتفرسة  
بغباء جديد قدم إلى العالم قبل قليل.

لو علم الطبيب بأمر الكارثة المدمرة التي  
تنتظره في مستقبل الأيام بسببه، لتركه يرافق والدته  
ليلتها.

توافد على إدارة المستشفى عقام كثيرون  
يحدوهم الأمل في تبني طفل جميل يملأ عليهم حياتهم  
بعد تراجع الحب وسلطانه فيها، عادوا جميعهم من

حيث أتوا تنعق الغربان فوق رؤوسهم، ما إن وقعت  
عيونهم على خلقة الرضيع المشوهة.  
أن تكون محروماً لا يعني بالضرورة أن تقبل بأي  
شيء يعرض عليك.

بعد فترة، تم وضعه بدار الأطفال؛ حيث ستبدأ  
الحكاية؛ حكاية ذي الرأسين. وجد مديرها صعوبة  
جمّة في اختيار اسم مناسب للوafd الجديد، ما حدا  
به إلى كتابة مجموعة من الأسماء في مطويات  
صغيرة، والتقاط إحداها وإثبات اسمه الذي لا  
يعرفه سواه في سجله.

(دوبل طيط) هو اللقب الذي التصق به. ظل في  
البداية يثير سخطه عند سماعه، فيثور بحنق  
شديد على من يناديه به، وكان لا يجيد من فنون  
العراك سوى النطح، لكنه مع توالي القصف  
استسلم ورضي به.

منذ اليوم الأول الذي دخل فيه عليه دون  
استئذان، فطن إلى موهبته الفريدة في الوشاية؛

كونه يعتمد في عملياته السرية على رأسين، عكس باقي وشاة العالم المتلصص. أخذ ينقل إليه بأدق التفاصيل نهراً ما يحدث بالليل، وليلاً ما يجري بالنهار. يكاد يجزم نزلاء الدار والعاملون بها بأن اللقيط لا يغمض جفنيه على مدار الساعة، ويتواجد بأماكن مختلفة في نفس الآن. ما جعل المدير يخرق القانون المنظم، ويحتفظ به حتى بعد أن تجاوز السن القانوني الذي يحتم عليه مغادرتها. حين أحس بأن نهايته قد أزفت، استفرد به على فراش الموت، واستحلفه أن يكتفم السر الذي يعرف عنه، ولا يفشيه أبداً لأي كان، ومات والشك حي يتحرك بداخله حركة اليقين، رغم أنه أقسم له بأغلظ الأيمان.

مصيبة ما بعدها مصيبة أن تعبر معك الريبة إلى الضفة الأخرى.

لم ينتظر بزوغ الفجر ليشيع مع المشيعين جثمان الفقيد، بل فر بجلده بعيداً تحت جنح ليل

عاصف إلى أن أمن على نفسه من نقمة الناقلين؛  
حيث اشتغل باديء الأمر حمالاً، يحمل كل ما لا  
ينوء بحمله كاهله القوي. لكنه وجدها بعد حين  
حرفة غير ذات فائدة كبيرة في إشباع نزوته  
التلصصية الجامحة، فتركها يوم كشف غريم له  
للملأ ضعفه الكامن وراء عظمة بنيته الممرغة في  
التراب. ثم تقلب في أعمال كثيرة ومتباينة إلى أن  
استقر به حلمه القديم سائق تاكسي صغير، ما روى  
عطشه الشديد.

وما كادت تدور به العجلاتُ في مدار المدينة  
دورتها الكاملة حتى أصبح عشقه الأبدي محمياً بقوة  
القانون.

في ركن قصي داخل مطعم شعبي، جلست على  
الكرسي المقابل له، تصغي إلى حديثه دون كبير  
اهتمام. فهي لم تعد تلك المراهقة التي تملك عليها  
حواسها عبارات الغرام. أخبرها، وهو يضحك  
ضحكة درداء، أنه يعرف عنها أكثر مما تعرف عن

نفسها. يعرف أنها مقطوعة من شجرة؛ لا يُعرف لها أصل ولا فصل. ترملت بعد زواج قصير لم يتجاوز عامه الأول، ولم يترك لها الهالك سوى العوز والفاقة. فاضطرت إلى الاشتغال خادمة في البيوت منذ ما يزيد عن خمسة أعوام. يعلم أنها امرأة ونصف، ليس بين النسوة من تجاري سلاطة لسانها وبطش يدها. بل إنها تتحدى حتى أصحاب الشوارب الكثة من الرجال. يبدو مظهرها في غاية اللطف، ولكن حين تصعد القردة إلى رأسها، تحول النظام إلى فوضى عارمة في رمشة عين. لهذا يطلقون عليها اسم روبالة\*. يجده اسماً لائقاً بها. ثم صرح لها بأنه يرغب في الزواج منها. هنا حدقت ملياً في عينيه، وحين تيقنت من صدق سريره، مالت ميلة واحدة على طبق اللوبياء والكرشة الذي على وشك أن يبرد أمامها، ولم تقم عنه إلا وقد مسحته مسحاً، لكنها لم تستطع أن تقرأ فيهما السبب الحقيقي لهذا الزواج من أول لقاء بينهما. إنه بهذا سيضع يده على

أهم مصادر الأخبار؛ ألا وهو شبكة الخادmates التي تتحكم فيها.

شارك دوبر طيط في عملية أمنية كبيرة للقبض على مجرم مسجل خطير؛ إذ تنكر في هيئة مشرد مخبول مكشوف العورة، يفعلهما تحته. صدر الأمر له بالأ يبرح تحت أي طاريء مطرح الأزابال المحاذي للبيت المهجور بالضاحية؛ الذي وصلت إخبارية بشأنه تقول بأن المعني بها سيلتجيء إليه للاختباء فيه إلى حين تصير الظروف مواتية لهروبه إلى وجهة مجهولة. بقي على هاته الحال لأيام يراقب المكان ليل نهار دون أن يظهر للمجرم أثر إلى أن غدت رائحته أنتن من رائحة الجيف في عز السموم.

أثبت التقرير المرفوع إلى الجهات العليا عدم صلاحيته لمثل هاته العمليات؛ إذ عزا سبب فشل العملية الذريع إلى شكل رأسه الذي جعل المطلوب من العدالة يغير خطته ويفلت من قبضتها بعد أن تعرف عليه من خلاله.



كيف يستعيد حظوته السابقة لدى أولياء

نعمته؟

هذا هو السؤال الثقيل الذي بات يشل حركته الآن، ويسد شهيته. لا بد له أن يضرب ضربة كبيرة في القريب العاجل؛ عساها تعكس صورته بوضوح من جديد على مرآتهم، بعد أن شوشتها فضيحتة المدوية؛ التي عرضته كالعادة لمختلف أصناف الإهانة.

دخلت روبالة إلى بيتها تسبقها فرحة عارمة، واستعجلت زوجها أن يغادر الحمام لتزف إليه بشرى طائرة. هرع للتو نحوها وهو يشد حزام سرواله، مقلباً نظراته المتسائلة فيها، فأخرجت له من بطن محفظتها ظرفاً أبيض صغيراً، وأخبرته بأن الفرج الذي انتظرا قدومه طويلاً ينام بداخله. لقد عثرت عليه الخادمة التي تشتغل بشقة الطبيب بأحد أدراج مكتبه الذي نسي أن يدير قفله قبل خروجه إلى عمله هذا المساء.

نزع بسرعة الورقة المطوية من بين فكي  
الظرف، وراحت عيناه تلتهمان ما فيها. وكلما تجاوز  
سطراً من سطورها إلا وانبسبت أساريره. وعندما  
أتى على قراءة كل ما فيها، طلب في قرارة نفسه من  
الراحل مدير دار الأطفال أن يسامحه في قبره لأنه  
مضطر إلى أن ينكث عهده معه، وجر إليه رأس  
صاحبة البشارة وطبع عليه قبلة حارة تمتت لو كانت  
في مكانها، ثم قفز كقرد الشمبانزي إلى خارج المنزل  
قفزة واحدة.

أثناء التحقيق معه، وجد الطبيب نفسه  
محاصراً بدليل إدانته القاطع الذي ضيق عليه  
الخناق من كل جانب، ولم يترك له أي مجال  
للمراوغة، ولا أي منفذ للإنكار. تهمته ثابتة عليه  
إذن، لم يكن أمامه خيار ثان سوى الاعتراف  
بالمنسوب إليه؛ لعل وعسى يتم تمتيعه بظروف  
التخفيف، لكنه لسوء حظه لم يحظ بها حتى في  
مرحلة الاستئناف؛ نظراً لفداحة فعله الإجرامي

المتمثل في جناية تكوينه - بمعية شريكه مدير دار  
الأطفال قبل وفاته - لعصابة إجرامية دولية  
متخصصة في المتاجرة بالبشر والأعضاء البشرية،  
زيادة على التغيرير بالتزيلات القاصرات واغتصابهن.  
كانا عند وقوع الحمل يبيعان الأجنة للأزواج العواقر.  
وفي حالة موت أحدها خلال الوضع يبيعان أعضاءه  
إلى شبكات تنشط على المستوى الدولي. صدر عليه  
الحكم بالحبس النافذ لمدة عشرين سنة، والمنع من  
مزاولة مهنة الطب مدى الحياة.

أيهما والدي؟

هكذا تساءل دويل طيط مع نفسه، ثم ما لبث  
أن أشاح بعيداً بتفكيره لما تنازع رأساهُ الجواب؛ الأول  
يقول الطبيب، والثاني يقول المدير.

في المرات القليلة التي كان يسرقها بشق النفس  
بين الفينة والأخرى من وقته الذي لا يسمح له أبداً،  
من أجل أن يندس تحت لحاف حليلته، ويلعب معها

لعبة الخلق على طريقة الشرق، كانت تنهره وتطرده  
خارج ملعبها بسبب تعطل جهازه الدائم.  
لقد طفح بها الكيل، ونفذ احتياطها من الصبر  
أيضاً، فطرده في المرة الأخيرة خارج البيت البارد،  
وحظيرة الرجال وهي ترغي وتزبد في ليلة أنكر عليه  
صقيعها ذلك. وما أدراك ما إرغاء وإزباد روبالة؟  
يوقظان حتى النائمين نومتهم الأبدية وألسنتهم رطبة  
من حمد ربهم وشكره أن قطع دابره إلى يوم الصفر  
العظيم.

---

\* مقتبس من الكلمة الفرنسية trouble



## رجل لسبع نساء

زرتُ اليوم المدينة الأثرية الموغلة في الألم؛ التي  
لظالما حدثتني عنها نفسي حديث البطحاء للسماء.  
جزء كبير من معالمها ما زال صامداً يقاوم جبروت  
الزمن، بعد انهزام أصحابها أمام جيشه القاهر في  
معركة الأمل.

عادةً لا يكون هناك سياح كثيرون في الموسم  
البارد؛ ما جعل صفيحة فرصتي ذهباً خالصاً.  
صوبتُ نحوها كاميرتي لتلتقط لي أدق تفاصيلها من  
أم رأسها إلى أخمص قدميها، قبل أن أبعدها عن  
عيني بسرعة المندهبش غير المصدق، وأخذت أقلب  
نظري المستفهم في المشهد الغريب الذي تجمدت  
عنده للحظة تتفرس فيه. كان هناك جمع من

النسوة يجلسن على تلة غير بعيد. سبع فتيات في  
عمر الزهر، وعجوز تنكر لها الدهر بعد طول عهد  
وود.

إقتربتُ منهن مسافَةً يسيرةً، وطفقتُ أحوم  
حولهن بحذر شديد؛ حتى لا أتهم باطلاً بما ليس في  
نيتي. لم أكن أبغي سوى جواب قاطع لرقبة سؤالي  
الطويلة جداً:

- كيف يمكن كل هذا الوقت دون أن تكلم  
إحداهن الأخرى، وهن بطبعهن القديم لا  
يستطعن الصيام عن الكلام حتى في أقصى  
حالات الخصام؟

لا يمكن، مستحيل! ولكن ها أنذا الآن أعزل إلا  
من رأسي الهادر، وجهاً لوجه أمام الاستحالة  
المدججة بعدم الإمكان.

مر علي وقت لم أعرف قدره وأنا على هذا  
الحال؛ أتدلى من عرقوبي في قبضة السؤال إلى أن

صرخت سبابة إحداهن عالياً في وجهتي على حين  
غرة:

- رجل.

وقامت تجري تقصدني، ولم تتأخر الأخريات في  
بدء سباق محموم خلفها، وهن يتصايحن:

- رجل، رجل.

تسمرتُ مكاني إلى أن بلغني، وأخذن يتحسسن  
جسدي بأيدي جليدية، بين ضاحكات وباكيات  
بهستيريا.

قالت العجوز التي وصلت بعد لأي، وهي تغالب  
حدة سعالها:

- لقد قضى جميع رجالنا في جائحة كاسحة،  
وكدنا نفقد الأمل بعدما طوح بنا الانتظار  
مثل الإعصار في كل خيبة.



مر شابان يسيران متلاصقين بشكل مريب في  
هذه الأثناء. لم تتمالك نفسها، فعلقت بغضب  
خامد تحت رمادها:

- لا أعرف لماذا بقي هذان المخنثان على قيد  
النجاة معنا.

ضحكتُ لضحك الشابات الخجول من قولها،  
لكنها لم تدعه يطول أكثر عندما شدت يدي بما  
فضل لديها من قوة، وخاطبتني قائلة:  
- بقاؤنا بين يديك يا ولدي.

أجلتُ بنظري الملجوم على نظراتهن المشرئية إلى  
أن ألقى بنعم في جب العدم؛ كي يصعد منه العالم  
من جديد. جنّت سائحاً إلى هذه الأرض، فإذا بي  
أجدني الآن فرصتها الوحيدة لاستمرار الحس  
البشري عليها.

يا إلهي، كم هي قاسية ومزعجة أن يطل العقم  
برأسه الرقطاء من وراء هاته الستارة الفاصلة!

في بكور يوم من أيام الشتاء القارسة، أفلتت العجوز عكاظها الذي لم يفارق يدها قط منذ أعلن الوهنُ حربَه الحتمية عليها، وأقبلت تجري مثل ظبية الفلاة صوب غرفة نومي، تطرق باها بقوة فرحتها لتزف إلي البشارة.

لم تستطع مقاومة عاصفتها الهوجاء؛ فتصبر إلى أن أزيد ثوباً على ثوبي، وأفتح لها. أخذت تصيح خلف الباب:

- قم، لقد ظهرت بشائر الحمل علمين.

بقيتُ ممدداً على سريري، أنظر إلى السقف وكأنه محيط لا ساحل يحفه، ثم تهلل وجهي، وانفرجت أساري من ابتسامة عريضة عرض الفرج في طول الضيق.

خاب اعتقادي. كنتُ أعتقد أن الفكرة لا تعدو أن تكون سوى لعبة من أجل تزجية الوقت، وقتل الملل داخل الأرحام، ستنتهي كما بدأت سريعاً. فإذا هي جد؛ لا حظ للهزل فيها.

في هزيع الليلة الماضية، إتفق الأجنة على  
التنافس فيما بينهم؛ لمعرفة من الذي سينفخ فيهم  
بطن أمه أكثر، ويبرزه أكبر فوق باقي البطن.

ظلمتُ أقلب قلبي ليل نهار بين التوسل والرجاء،  
أطلب السلامة إلى أن حان موعد الوضع. لكن  
المخاض على غير العادة فاجأني أنا دونهن؛ دون  
نسائي. ألم بي طلق شديد، جعلني أهيم كالمعتوه على  
وجهي في الطرقات. لا أجد سلوتي خلا في خلوتي؛  
طوراً في المقاهي، وطوراً في الحانات.

ثم انتهى عذابي الذي كاد يعجل بيوم حسابي،  
غداة هلل الوجود بمقدم المواليد من مغاور العدم.  
كانوا ثلاث إناث، وأربعة ذكور.

إعتلت العجوز التلة، وزغردت سبعاً خلعت  
نايها الذي صمد وحده لحد الآن بفكها العلوي، ثم  
صاحت:

- ليس هناك أجمل من هذا اليوم لأحضن فيه  
موتي. لن أغفر لكم أبداً إن ذرftتم دمة حزن  
تفسد علي فرحة رحيلي.

وماتت ولم نبك عليها.

تمنيتُ لو أمهلها القدر قليلاً إلى أن ترى الصغار  
يفلحون، بعد عدة محاولات فاشلة، في الوقوف  
منتصبين على أقدامهم لأول مرة، ويخطون  
خطواتهم الأولى، ليملاًوا الدنيا حولها بهجة.

تمنيتُ لو أمهلها القدر قليلاً أكثر إلى أن تراهم  
يسلكون سبلاً مختلفة، لكنها تؤدي إلى نفس الوجهة.  
على أطراف المدينة القديمة، تقيم الأولى مدينة  
جديدة. يسحر الرائي معمارها الراقي، ويخبر الداني  
عنه القاصي. يمسي الناس ويصبحون يتحدثون عن  
جنتها الأرضية البديعة، ويتلهفون إلى زيارتها ذات  
فرصة قريبة سانحة.

بقلب ساحتها الكبيرة، ينصب لي الأول تمثالاً  
هانئاً. أشخص فيه ببصري وسبابتي إلى السماء؛

تعبيراً عن شكر الأرض لي على نفخي روحاً أخرى في بطنهما.

تسيح الثانية في ملكوت الله المدة الكافية. تصيخ السمع إلى سكون الليل، وتغريد الطيور، وخيرير المياه، وحفيف الأشجار... ثم تعود تحمل أنغامها، تصيرها سلماً ترتقي عليه النفوس إلى موطنها الأول خارج الأبدان.

تنبعث الثالثة من تحت جناح الظلام الدامس بثوبها الأبيض اللامع، وتسافر بمن يشاهدها عبر مركبتها إلى مجرات تبعد كثيراً عن مجرته؛ ليحيا حياة أخرى جميلة، لا تشبه في غالب الأحيان حياته. الثاني ساءه كثيراً ألا يملك من الألوان سوى ثلاثة باديء الأمر، فراح يزواج بينها إلى أن حصل على ما يشبع رغبات فُرْشه منها.

هذه لوحته البكر تتعانق فيها أحاسيس كثيرة. متى تراجع المتمعن في تفاصيلها بعض خطوات إلى

الخلف، يراها تتحرك وتنبض بالحياة. يرى العجوز  
في كامل شبابها جميلة، ومرحة، ومنطلقة.

يقطع الثالث دابر الجدال العقيم في كل  
مجلس، ويجزم بأن الكلمات ملائكة أولي أجنحة  
مثنى، وثلاث، ورباع. لا تحط إلا على شرفات الأفئدة  
النقية الطاهرة، وتحلق بها إلى العوالم النورانية  
الخفية؛ لتسقيها من حوض الصفاء، الذي لا تشوبه  
شائبة، شربة تظماً بعدها أشد ما يكون الظماً إلى  
عب المزيد منه في كل مرة.

الرابع قديس، يعتلي خشبته وقت صلواته.  
يغمره نور يشق صدر الظلمة من حوله. يرتل تراتيله  
سراً وجهراً، فيزج بالحاضرين في جذبة عارمة،  
تكشف الحجب عن أبصارهم وبصائرهم، ثم ينزل  
خفيفاً خفة الريش من علاه وهو يرتعش، ويتصفد  
عرقاً عريقاً يمتد إلى الصرخة الفاصلة بين الإنسان  
والحيوان.



# الفهرس

5.....	البيت
9.....	مملكة الزيفون
17 .....	همس الظلال
21 .....	الغبدار
31 .....	العرائس المنكرة
35 .....	المخ.. شوشب
41 .....	طائرتي الخاصة
47 .....	كازازازا
53 .....	يوم رقصت الحافلة
59.....	الذبيحة السردية
69.....	الحذاء الضاحك
77.....	الصرخة الثالثة
87 .....	البغل الذي ابتلع القمر
97 .....	ذو الرأسين
109.....	رجل لسبع نساء



## إصدارات الكاتب

■ سنة 2012

الموكب الملكي: مجموعة قصصية عن دار

الوطن بالرباط

السنة الماء: ديوان شعر عن دار الوطن

بالرباط

■ سنة 2014

عودة سندباد إلى بغداد: مسرحية للأطفال

عن منشورات دهبيا بركان، فازت بجائزة الجمهورية

في مهرجان توفيق الحكيم بمصر عام 2008،

وجوائز أخرى داخل المغرب وخارجه

■ سنة 2015

الحمار الحكيم: مسرحية غنائية للأطفال عن

منشورات مرايا بطنجة، حصلت على جائزة تازة


للإبداع الأدبي عام 2013

حطّة الرما: مسرحية بالعامية عن دار  
التوحيدى بالرباط، بدعم من وزارة الثقافة  
■ سنة 2017

عدالة الماء: مسرحية للأطفال عن منشورات  
الحلبى بتمارة، بدعم من وزارة الثقافة. وهذا العمل  
توج بجائزة مهرجان المسرح المدرسى بالأردن عام  
2018

■ سنة 2018  
المجداف: ديوان شعر عن مطبعة الأنوار  
الذهبية بخريبكة

■ سنة 2019  
جاء الأمير: مسرحية للأطفال عن مطبعة  
الأنوار الذهبية بخريبكة، صنفتها الهيئة العربية  
للمسرح ضمن أفضل النصوص المسرحية العربية  
العشرين عام 2015



ها نحن قد وصلنا بعدما بلغ منا المسير مبلغنا.  
لو كان لغوك المصاب بنوبة حادة من الإسهال قدماً تسعى،  
لكنا قطعنا المسافة في وقت أقل بكثير مما فعلنا.  
أنظر حيث تنظر سبابتي، هل رأيت البناء القائم بمفرده أعلى  
التلة، وسط هذا الملكوت المالك مجمع النواصي والأفئدة؟  
إنه البيت الذي كنت دائماً أحدثك عنه، وكنت دائماً تحمل  
كلامي محمل الهزل والمحال. لم تصدق مرة واحدة أنه بدون  
باب ولا جدران.

ها هو أمامك مباشرة الآن. هل ترى له عماداً أو سقفاً؟  
إياك أن تقول إنك لا تراه. إذا لم تكن تراه، فاعلم علم الموقنين  
القاطعين رؤوس الريبة كلما أينعت أنك أعمى.  
أجل أعمى. أقولها، وأختم عليها بخاتم السماء. أنت واحد من  
العميان، حتى وهاتان العينان الفارغتان لا تتوقفان عن  
الدوران داخل متاهة رأسك التي لا تنتهي.